ونستون تشرشل



حياته
سياسته
معاركه

بقلم
هيج مارتن
ترجمة:
محمود عزت موسى

ونستون تشرشل

حياته ومغامراته ومعاركه

بقلم

هيج مارتن

ترجمة

محمود عزت موسى

الناشر

دار الفكر

ونستون تشرشل

حياته ونشأته الباكرة

تتسم حياة السياسى العجوز الداهية ونستون تشرشل بتعدد جوانبها ، وغرابتها ، ولقد لعبت الأقدار فى حياته دوراً هاماً منذ نشأتها ولقد قال لورد دابرنون السياسى البريطانى فى كتابه «سفير السلام»: فى الواقع أن ونستون تشرشل كان ثمرة لوالدين غير عاديين . فلقد كان والده لورد راندولف سبنسر تشرشل الابن الثالث لدوق مارلبرو السابع وكانت أمه جانيت أو جينى جيروم ابنة ليونارد جيروم الصحفى الأمريكى بمدينة نيويورك ، وكان هذا الجد صحفياً مغامرا ، ومن المتحمسين لسباق الخيل ، وكان والدا تشرشل بالتالى شخصين غير عاديين ، ومع أنهما لم يصيبا قدرا كبيرا من الثقافة الواسعة ، إلا أنهما كانا على جانب كبير من الذكاء واتساع الأفق . . كان راندولف تشرشل خطيباً مشهورا بين المحافظين ، وله جولاته فى الحياة السياسية ، وكان معروفا لدى أقرانه بضحكاته المجلجلة وتعليقاته اللاذعة ، ولقد ورث ابنه ونستون عنه هذه الصفات . . وكان والده يهوى الصيد

أكثر مما يهوى الكتب ، وعندما صار عضوا فى البرلمان لم يكن يقل ثقافة عن باقى الأعضاء من طبقته، ومع هذا فان ما كان ينقص والده من العلم كان يعوضه بالذكاء .

التقى راندولف تشرشل بزوجته لأول مرة فى حفلة راقصة على ظهر إحدى السفن ، وكانت جينى جيروم ، فتاة أمريكية ، متألقة ، وكانت فى طريقها لرحلة طويلة لأوروبا ، ولم تكن هذه أول عهدها بأوروبا ، فلقد كانت تعرف معالمها تماماً ، كما تعرف وطنها أمريكا ، إذ أنها ولدت فى إيطاليا عندما كان والدها يشغل منصب قنصل الولايات المتحدة بمدينة تريستا .

وعندما التقى راندولف تشرشل بزوجته المقبلة جينى جيروم لأول مرة فى تلك الحفلة كان هو فى الرابعة والعشرين ، وكانت هى فى التاسعة عشرة . . وما لبث راندولف أن شغف بها حباً ، بيد أن هذا الحب لم يرق فى نظر والده ، وبذل جهده لكى يحول بين العاشقين ولكن راندولف لم يطق أن يحول حائل دون أن يظفر بحبيبته ، فمضى فى أثرها ، ولحقها فى باريس حيث عقد زواجه عليها فى السفارة البريطانية بباريس فى ١٥ أبريل ١٨٧٤ . . وولد ابنهما الذى أسمياه ونستون ليوناد سبنسر تشرشل فى نهاية نوفمبر من تلك السنة . . أى بعد سبعة شهور من زواج والديه .

لم يكن ونستون تشرشل فى أول عهده بالحياة بالطفل المحبوب ومع أنه لم يكن قوى البنية ، فانه لم يكن خفيف الظل ، ميالا للدعابة ، ولعل الشخص الوحيد الذى كان يعتبره طفلا رقيقاً هى مربيته .. كانت مظاهر الجد تبدو كأحد صفاته وكانت أطماعه تبتدى على نحو يبلغ حد الشراهة .. وكان بشعره الأحمر ، وعيناه الواسعتان الزرقاوين وأنفه الأفطس ، يبدو كأنه لا يألف الراحة ولا يستكين للدعة ، بل يريد أن يشيع القلق والاضطراب لنفسه ولمن حوله . . وكان والده يدرك هذا فى ولده ، وحاول أن يهذب من حدته ومن اندفاعه ، ولكنه لم يمض طويلا فى هذا ، وترك ولده ينمو على هذه الطباع التى تتسم بالجد والاندفاع .

كانت الشخصية الوحيدة التى يألف إليها ونستون تشرشل فى طفولته ويركن إليها ، والتى استطاعت أن تتفهمه هى مربيته السيدة افرست . . ولا تزال صورة هذه المربية تحتل مكانها فى قصره بشارثول كما كانت فى مكانها أيام كان يعيش فى حى مايفير قبل أن يتزوج . . وكان هذا الطفل العنيد ، الجامح ، لا يكاد يراها مقبلة عليه لزيارته عندما كان تلميذا فى مدرسة هارو حتى يهرع إليها ليقبلها .

وفى سن الرابعة ، عاش ونستون تشرشل عاما أو أكثر فى

ايرلندا ، فى رعاية مربيته ، حيث كان والده يعمل هناك فى إحدى الوظائف الدبلوماسية .

ولم تكن أيام دراسته الباكرة أياماً مشرقة مبهجة ، كما يقول هو ذلك . . بل أنه ليذكر بأنها كانت أشق فترة فى حياته . . فقد كانت علاقاته سيئة مع زملائه . . وكانت الدروس التى يتلقاها فى ذلك الحين لا تتلاءم مع طبيعته البرية ، ورغبته الجامحة ،فكانت كما وصفها ، مضيعة للوقت وللمال فى وقت واحد » وفى الواقع أن دراسته فى هذا السن كانت متعثرة ،وكانت برامج الدراسة وأساليبها لا تلائم هذه الطبيعة التى بذرت بذورها فى هذا الطفل وكان من المحتمل أن تكون هذه الدراسة التى يمجها ويمقتها سبباً فى تدمير حياته كلها ،لولا أنه استطاع بنفسه أن ينفلت من تأثيرها وآثارها عليه . . وفى الوقت ذاته فان صحته كانت متدهورة ، وازدادت سوءاً فى سن التاسعة ، وكان ناظر المدرسة فى ذلك الحين ، رجلا عنيفا قاسيا ، وطالما كانت تسمع صرخات الطفل والناظر ينهال عليه بالمقرعة ضربا . . وكان لهذا اللون من التعذيب الذى لقيه من ناظر المدرسة أثر بالغ فى نفسية الطفل ، فاشتد حنقه عليه ،وكرهه له ولم يتورع أن يتآمر على الناظر أخذا بالثأر ، بل لقد رفس قبعته بقدميه وكان جزاؤه المزيد من الضرب .

أما بقية المدرسين ، فكانوا يعتبرونه طفلا غبيا ، شرسا ،

عنيداً . . فأمعنوا فى القسوة عليه مما أدى إلى انهيار صحته ، وانقطاعه عن تلك المدرسة .

ولكن ذلك لم يدم طويلا ، وتفتحت عين الأسرة على حالته وعلى ما يحدث ، ومن ثم فقد استقر بهم الرأى إلى نقله لمدرسة أخرى تشرف على الدراسة فيها بعض المعلمات ، ليلقى معاملة أرق جانباً منهن . . ولقد عبر الكاتب الانجليزى المشهور ه . ج . ويلز عن تلك الفترة القلقة المضطربة من حياة ونستون تشرشل بقوله : لقد مرت على حياة ونستون تشرشل فى تلك الفترة الأولى من حياته سحابة قاتمة ، كان من الممكن أن تودى به ، فقد كان يبدو كولد شقى معربد ، خطر » .

وكان نقله إلى مدرسة بريتون . ليكون فى دراسته فى رعاية معلمات أرق جانباً ، وأحسن معاملة ، تدبيراً يتسم بالعقل والحكمة إذا أثبتت التجربة القاسية التى مرت به من قبل أن الضرب لم يستطع أن يجعله طفلا مهذبا منتظما ، مستقيما ، بل لقد زاده ذلك سوءاً وشذوذا ، عدا أنه أثر على صحته تأثيرا بالغاً كاد يرديه .

وكانت إحدى معلماته الآنسة إيفا مور تشتغل بالتمثيل ، فحاولت أن تعلمه الرقص . ولقد وصفته هذه المعلمة بعد ذلك بسنوات قائلة : « هذا الطفل الضئيل الحجم ، والتلميذ الأحمر

الشعر ، كان يبدو أنه أشد التلاميذ ضراوة فى الفصل . . بل أشد الأطفال شراً فى العالم ! » .

ولم تكن الألعاب تستهوى ونستون تشرشل الطفل فى حداثته فيما عدا شغفه بالمسرح ، وخاصة مسرح العرائس ، وكانت الرواية التى يؤثرها على غيرها هى قصة « علاء الدين » إذ كانت تستهويه وقائعها المثيرة ومفاجآتها اللطيفة . . وتنال اهتمامه كله .

وتضاعف حب ونستون تشرشل المسرح وخاصة مسرح العرائس كما ذكرنا وكان ينفق عليه كل ما يصل إليه من نقود فى شراء معداته ومستلزماته بل لقد كان جل أمانيه فى تلك المرحلة الباكرة من حياته لو صار ممثلا ! وقد برع إذ ذاك فى التمثيل وأجاد فى إحدى المسرحيات المسماة « الوريث فى القانون » إذ كانت له ذاكرة مذهلة فى حفظ الأدوار .. كذلك لم يستحوذ عليه الحياء أو الخجل ليحول دون إتقان دوره . كذلك كان تعبيره مؤثراً قوياً .. ولم تكن لثغة الأطفال ، أو ترددهم فى النطق تعتوره ، بل كان جريئاً فى تعبيراته أمام المشاهدين ، دون أن يتلجلج فى النطق أو يرتج عليه فى الموقف . . وهذه الصفات من الجرأة والاقتحام تعتبر من صفات الأساسية التى لازمته طيلة حياته ، ، وليس ثمة ريب أن هذه الظاهرة ، تعتبر وراثية .

وفى هذا السن ، أى سن العاشرة تقريباً ، أبدى ميلا دافقاً للصحافة والتحرير ، وأنشأ صحيفة ،كان هو مالكها ومحررها وأسماها « النقد » وكانت تعتبر من صحف المدارس المميزة ؛ وكانت تحرر باليد من نسخة واحدة ا ثم قام بإنشاء صحيفة أخرى أسماها الجازيت البريطانية » .

وأصيب فى ذلك الحين ببرد شديد ، انقلب إلى التهاب رئوى حاد كاد يودى بحياته . فلما حان موعد التحاقه بكلية أيتون التى تلقى فيها والده فيها دروسه عدل أبوه عن إلحاقه بها ، لأن مكانها لا يلائم صحته الضعيفة فالتحق بمدرسة هارو التى تقع مبانيها على مرتفع صحى .

وفى امتحان القبول بمدرسة هارو ،كانت نتيجته سيئة جداً .. فقد كان يكره اللغة اللاتينية كراهية شديدة إبان وجوده فى مدرسة بريتون ولقد ظل طيلة أيامه بعدئذ . . لا يرتضى أن يتعلم أى شىء تمجه نفسه أولا ترتاح إليه . . بينما كانت اللغة اللاتينية فى ذلك الحين من أهم الدعائم التى يجب على التلميذ أن يتقنها لكى يبدأ حياة مدرسية لائقة . . وعلى هذا فقد وضع ونستون تشرشل فى كلية هارو فى آخر الصف المدرسى إذ أنه لم يجب على كلمة واحدة فى امتحان اللغة اللاتينية .

كذلك لم يوفق فى رياضة التسلق طيلة السنوات الست التى أمضاها فى كلية هارو حتى التحق بكلية ساند هرست . بل لم يحاوله

أن يتفوق فى هـذه الرياضة .. كذلك لم تستهويه رياضة كرة القدم فى المدرسة كثيراً ، وكان ينظر إليها نظرة مغايرة عن أقرانه .. بل لقد كان فى فترة ما فى أثناء الدراسة من الفريق المعادى للعبة كرة القدم .. كان مايميزه عن غيره من التلاميذ قدرته الفائقة فى الحفظ وقوة ذاكرته .. ولـكنه كان كارهاً للغة اللاتينية كما كان ضعيفاً فى اللغة الفرنسية إلى حد الركاكة ، وكذلك لم تـكن معلوماته فى اللغة اليونانية تزيد عن معرفة حروف الهجاء .

ولـكن حبه للصحافة ، كان قوياً جارفاً ـ يملك عليه تفـكيره ، وكان هذا يرضيه ، إذ أنه لم يكن له حظ يذكر فى ميادين الألعاب الرياضية لضآلة جسمه وقتئذ .. وكان هو يغرى نفسه بذلك ، ولقد قال فى بعض « مذكراته » إن والدى كان عظيما .. بالرغم من أنه كان صغير الجسم .

وانخرط ونستون تشرشل فى سلك محررى صحيفة كلية هارو وكان يوقع بإمضاء « جونيوس الصغير » فى تعليقاته ومقالاته المتعددة لم يلبث أن وجه إلى النظم المدرسية نقداً لاذعاً .. وإلى اساليب التلاميذ فى ضياع أوقات الفراغ . وبالرغم فى ذلك فقـد امتاز فى لعب السيف وأحرز بطولة المدارس فى لعبـة السيف وكانت هذه اللعبة بالذات تستهويه .. ولسوء حظه فإنه أصيب فى ذراعه الذى يلعب به السيف ، وظل عاجزاً طيلة حياته عن مزاولة

هذ اللعبة التى كان يحبها بعد إحرازه لتلك البطولة لسنوات قليلة ، وهكذا أيضاً لم يستطع أن يزاول لعبة التنس .. وكان يؤثر كذلك لعبة البولو إلا أن عجز ذراعه كان يحول دون أن يمارس هذه اللعبة إلا بصعوبة فى بعض الأحيان التى يرغب فيها أن يلعبها .. ولقد حدث فى أم درمان بعد ذلك أن ألقى بسيفه ومضى يقاتل ببندقية « الموزر » التى كان يحملها .

أزاح تشرشل عن تفكيره كل رغبة للالتحاق بالجامعة .. ولقد استقر به الرأى على ذلك فى السنة الأخيرة من وجوده فى كلية هارو واعتزم بدلا من ذلك أن يلتحق بكلية ساندهرست الحربية وأن ينخرط فى سلك الجيش .

ولقد قال والده فى ذلك : « بأن هذا هو الحل الوحيد لهذا المغفل البليد الذى يصلح له ! كما أشار أيضاً بأن هذا المخرج قد يتيح له حياة تتفتح له فى المستعمرات . . » ثم إن هذا الصبى يبدى مهارة خارقة فى اللعب مع ذلك الجيش من الدمى الذى يتكون من ١٥٠٠ جندى من الصفيح — وكان الصبى قد أوصى بصنع هذه المجموعة الهائلة من الدمى — أوليس ذلك فيه من الدلائل مايشير إلى فطنته باللعب مع هذه المجموعة الكبيرة من الجنود ؟

وهكذا التحق بكلية ساندهرست .. ووافق ذلك مزاج ونستون تشرشل الصبى ، فإنه على أية حال سيكون حراً وقد نفذ

بجلده من تلك اللغة اللاتينية اللعينة .. فهو يكره تلك اللغات الميتة.. وأى نفع يعود منها بأى حال من الأحوال ؟ إنه يريد أن يعيش منطلقاً بغير حدود ، يريد ألا يضنى تفكيره أو يحمل ذهنه دروساً لامعنى لها فى نظره . . بل يريد أن يمارس الحياة على هواه ووفق مايشتهى . وأن يقدم عليها إقداماً دون مراعاة لأى شىء .

فى الواقع أن هذه الحياة الباكرة لونستون تشرشل تعطينا فكرة أن هذا الفتى سيقبل فى حياته على المغامرات التى شغف بها عن أى شىء آخر . . فإن المدرسة كانت فى نظره ، منذ الطفولة قيداً على حريته ، وكان تأثير تلك الأيام السوداء التى أمضاها فى مستهل حياته فى تلك المدرسة التى كان ناظر المدرسة يسومه فيها الضرب والإيذاء . . كان تأثير تلك الفترة عميقاً فى نفسه كل العمق .

اتسمت حياته الأولى بالجيش بابتسامة الحظ له فقد تفوق فى أول امتحان تمهيدى . وحالفه الحظ فى امتحاناته الأخرى التى تلت ذلك . . وكان قد صمم على أن يتفوق . . وفى الليلة السابقة للامتحان التالى ، كان يعلم بأن الامتحان سيكون عن رسم خريطة من الذاكرة لإحدى البلاد وأن يدرج فى الخريطة جميع أسماء المدن بها . وأراد أن يجرب حظه فوضع فى قبعته أوراقاً بأسماء عدة بلاد . ثم طوى تلك الأوراق ، واختار واحدة منها وكانت

الورقة باسم نيوزيلند ، فأمضى ليلة فى حفظ خريطة نيوزيلند ومدنها . . وما كان أشد دهشته إذ كان السؤال فى الامتحان فى اليوم التالى عن نيوزيلند بعينها . . وهكذا وفق فى رسم خريطتها وبيان جميع مدنها على نحو رائع .

وهكذا يبدو أن الحظ أو الأقدار كانت تلعب دورها العجيب فى حياته .

وثمة حادث له مغزاه وقع له قبل التحاقه بكلية ساندهرست العسكرية . . وتلك الحادثة تنم فى معناها ومغزاها على طباعه المتسم بالعناد والإصرار ، كان ذلك وهو فى الثامنة عشرة من عمره تقريباً ، عندما توجه إلى بلده بورتموث ليمضى فيها بضعة أسابيع تبديلا للهواء مع بعض أقاربه من أبناء عمومته وطائفة من الضيوف وكان من بينهم إثنان من التلاميذ ، وكان ميالا إلى اللعب مع الفتيان من التلاميذ والرغبة فى معاكستهم . . وفى ذات يوم بينما كانوا يطاردونه فى الخلاء ، حاصروه فى إحدى الأماكن بالقرب من جسر معين وكادوا يطبقون عليه لإمساكه . . ولكنه أبى ذلك وفضل أن يقفز من أعلى شجرة إلى منحدر يبلغ انحداره نحو ثلاثين قدماً . . وكانت النتيجة أن نجا من حصارهم وإمساكهم به ولكن ذلك كلفه غالياً إذ أصيب بتمزق فى جنبه واقتضى ذلك أن يلازم الفراش ردحاً من الوقت .

إن هذه الحادثة ، التى تدل على عدم التبصر والحكمة ، والتى تنم عن التهور بها جانب آخر فى حياة ذلك الرجل ، فهى تدل أيضاً على أنه يكن لم ليرتضى أن يستسلم أو يقع فى أيديهم . فهو بطبيعته مشحون بالرغبة .. ألا يقهر ، أو بمعنى أدق إن من طباعه الأساسية المقاومة حتى ولو كلفته هذه المقاومة كل شىء فى سبيل ألا يستسلم .

وفى فترة النقاهة الطويلة التى أمضاها الفتى فى بيته أتيح له أن يتصل اتصالا وثيقاً بوالديه .. واستطاع الفتى كذلك أن يلم إلماماً كبيراً بشخصية أبيه السياسية وأن يسمع منه الكثير عن مناوراته ومناقشاته ومنازعاته السياسية والحزبية فى البرلمان . . كذلك استطاع أن يتفهم الكثير عن سيرة السياسى البريطانى جلادستون والذى كان من ألد خصوم والده وقد وصفه بأنه رجل حقود خبيث كالوباء .

وهكذا تمكن ونستون تشرشل فى تلك الفترة التى أمضاها مريضاً ملازماً بيته أن يقرأ الكثير وأن يطلع على الكثير فى الشئون السياسية التى كانت مستعرة فى ذلك الحين بين الحزبين الكبيرين فى بريطانيا كما تمكن أن يعى أكثر وأكثر من أحاديث والدته التى طالما كانت ترددها فى صالونات بيتها عن مختلف الشئون . . وفى مكتبه والده ظفر الشاب ونستون تشرشل بقراءة كثير من الكتب التى اقتناها والده . . كما قرأ أيضاً بعض خطب

والده وكان من أهم مالفت نظره هذه العبارة التى جاءت على لسانه :

« إن الشباب قطعة من الجنون .. يكاد يجتاح كل شىء أمامه »

ومضى الشاب ، الذى كان والده لا يراه أكثر من مغفل كبير وجاهل أحمق فى وقت مايفكر أن يكون شيئاً يثبت عكس ذلك .

ولم يلبث والده أن مات بعد أن تخرج والده من كلية ساندهرست.. ولقد اغتم والده حزناً إذ أن ونستون تشرشل كان فى ذيل الخريجين.. أى فى مؤخرة الطلبة الناجحين.. ولم يكن ليستحق على هذا الوضع إلا أن يلتحق بسلاح الفرسان .. وكان الجيش للفتى شيئاً بهيجاً ولكن سلاح الفرسان كان لديه أبهج وأمتع ، فهو يهوى ركوب الخيل ، كما أن ملابس الفرسان تستهويه .. وأحس فى الوقت ذاته أن يستزيد من معلوماته العسكرية .

وفى ربيع عام ١٨٩٥ كان قد أنهى أيام الدراسة لينخرط فى سلك الجيش وكانت فرقته هى الفرقة الرابعة « الهوسار » المعسكرة فى آلدرشوت .

تشرشل الجندى

بدت فى المرحلة الأولى من حياة ونستون تشرشل ، معالم هذه الشخصية منذ نشأتها ، واتضحت فيها الخطوط العريضة لأخلاقه ونزعاته وأسلوب تفكيره الباكر .. بدا ذلك فى الأيام السوداء التى عاناها فى دراسته الباكرة ، وكيف أنه كان فى مؤخرة الصفوف وكيف كان يعامله ناظر المدرسة الذى كان يضربه ضرباً مبرحاً لعدم اهتمامه بالدروس وخروجه عن المألوف ، وتماديه فى الاستهتار كما بدا ذلك أيضاً فى عدم احتفاله بالدراسات التقليدية ونفوره من اللغة اللاتينية . . وكذلك أفصحت الحوادث التى سردناها فى القسم الأول من هذا الكتاب عن معدن تفكيره فى معالجة الأمور حتى فى أثناء لعبه ولهوه ، وكلها تنم على أنه كان عنيداً فى تصرفاته لا يرتضى أن يتقهقر قط مهما كان الثمن .

هذه المعالم من شخصيته .. وهذه الصورة لحياة تشرشل الباكرة لابد أن يتمثلها القارىء مليا إذ أن الأحداث المثيرة التى تلت ذلك وتداخلت فى شخصيته بما اشتملت عليه من تناقضات وعناء وإصرار تفصح إفصاحاً واضحاً بمدى الدور الذى لعبه تشرشل فى توجيه

تلك الأحداث سواء أكانت تلك الأحداث فى ميادين الحروب أو ميادين السياسة .

التحق ونستون تشرشل بالجيش عام ١٨٩٥ وكان أبرز منصب له فى ذلك الحين فى الميدان الحربى فى عامى ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ وخرج من التجارب التى مرت به بتأليف كتابين من أهم الكتب التى وضعها وأبرزهما كتاب « حرب النهر » .

قام تشرشل فى خلال ذلك بدوره ضابطاً فى الجيش البريطانى العامل فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وجزر الهند الغربية . . . وفى خلال الحرب العالمية الأولى وصلت رتبته فى الجيش إلى « ليفتننانت كولونيل » .

وزادت التجارب التى مرت به فى تلك الأثناء من خبراته وتطلعاته فى سنى الشباب الباكر كانت فكرة الجندية لديه مجرد فكرة جذابة استهوته . . ولكنه الآن فى سن الواحدة والعشرين صارت صلته بالجيش أكثر من الاستهواء العادى ، بل هى صلة قائمة على الحب العميق للحياة العسكرية . . ومن هنا تمكن تشرشل فى حداثته ، بعد أن لفت الأنظار إليه ، أن يتصل بالكثيرين من القاده ورجال الجيش المبرزين ، ليس باعتباره ضابطا عاديا بل باعتباره شخصية عسكرية قوية لها تأثيرها ، ولها إلمامها ولها

قدرتها واحتمالها وقد ساعدته الحوادث التى مرت به على أن يكون على صلة وثيقة بأولئك القادة الذين اتصل بهم .

كان متأكدا أنه دائماً يشهر سلاحه ، ولا يضعه فى غمده قط . كان يهوى الحياة العسكرية لذاتها ، فى الوقت الذى ركن فيه غيره من الضباط إلى حياة الدعة والخمول .

ولقد قال صديقه الحميم لورد بيركنهد عنه بعد ذلك بسنوات. إن هذا الرجل هو ابن هذا الجيل ، « وليس متخلفا فى تفكيره كضابط عتيق النظرات ، تقليدى الصفات . . بل ضابط متطور التفكير يستهدف المثل العليا فى الحياة العسكرية الحديثة » .

ولقد بلغ هيامه بالحياة العسكرية قدرا فائقا يمكن أن نسميه بالأحلام، أى أن حب الأخطار والمخاطرة كان يسرى فى دمه ، وصار كما يقولون « يشيد القصور فى الهواء» اشتياقاً لخوض غمار الحرب ومواجهة الأخطار والاشتراك فى المعارك الدامية . أن نفسه تهفو إلى أن يكون ضابطا حقيقيا وليس ضابطا فى المعسكرات الآمنة ، يرتضى الحياة ويقبل على الشراب والاستمتاع بالملذات الرخيصة والإكتفاء بالملابس العسكرية الزاهية .

ولقد سأل أحد الجنود ذات مرة وهو لا يزال برتبة الملازم عندكان فى معركة أم درمان «هل أشبعت نفسك استمتاعاً بالمعارك

الدامية ؟ » . . وبعد ذلك بثمانية عشرة سنة بينما كان الجنود فى ساحة الفلاندر عند خطوط النار كان هو نفس السائل مرة أخرى لبعض الجنود يقوله « ألا تحب الحرب ؟ إن الحرب لعبة يجب أن يمارسها المرء باسم الوجه » .

وبقدر ما كان يلتى فى ساحة الحرب من الحوادث العجيبة بقدر ما كان يتعلق بحياة الجندية إلا أنه مع ذلك كان يندد بأهوال الحروب .. وهذا تناقض عجيب فى حياة هذا الرجل، فإنه هو ذاته الذى يقول « ما قيمة الحياة إذ لم تكن مثيرة» فأما أنه يندد بأهوال الحرب ويقبل على خوض معاركها متلهفاً ، وأما أنه يبتسم للمعارك ويندمج فيها بكل طاقاته ثم يذكر أيضاً أنه يندد بأهوال الحروب فشىء يكاد لا يدرك الإنسان معناه لأول وهلة. والتفسير الصحيح لهذا التناقض الواضح بين النظرتين، أن تشرشل كان يرى الحرب فى وقت ما ضرورة لا بد من خوضها ، ضرورة تلزمه الأحداث على ممارستها وهو من أجل هذا لا يقبل عليها مرغما بل يقبل عليها وهو مؤمن بعدالتها وأنها الحل الأمثل فى تلك الأحوال. وبالرغم من ذلك فإنه لا ينكر بشاعة وأهوال الحرب .

وليس أدل على حبه لخوض الحرب ، أو لاقترابه من ميادينها أنه لم يكد يسمع وهو ملازم ثان فى فرقة الهوسار الرابعة ، وكان

وقتئذ فى سن الحادية والعشرين . . لم يكد يسمع بنشوب حرب فى كوبا حتى هفت نفسه أن تتاح له فرصة التوجه إلى ميدانها . ولو بصفته مراسلا صحفياً ، وكانت الصحافة هى هوايته المفضلة التى يؤثرها ، والتى يعتبرها من الأعمال التى تستدعى المخاطرة والكفاح سواء بسواء كحياة الجندى فى صميم المعركة .

ولقد كان والده من قبل يراسل صحيفة الديلى جرافيك فى خلال إحدى جولاته فى جنوب أفريقيا . . ومن الصحيفة نفسها استطاع الابن أيضاً أن يحصل على تفويض منها بأن يبعث إليها برسائل عن الحرب فى كوبا . . ومع أن الصحيفة لم تكن تدفع له أجراً يستحق الذكر ولكنه كان أفضل من لاشىء . . وإلى جانب ذلك فإنه كان سيظفر بإظهار اسمه مرة أخرى تحت عنوان « صحفى » .

وقامت فى وجهه عقبة ، كان لابد له أن يذللها حتى يستطيع أن يقوم بالدور الذى عهد إليه كمراسل صحفى فى كوبا . . كيف تقبل السلطات الأسبانية ذلك . . أما تشرشل فلم يعدم وسيلته ، بل لجأ إلى أحد أصدقاء والده وهو السير هنرى ولف السفير الانجليزى في مدريد لكى يتوسط فى تسهيل مهمته لدى الجنرال كامبوس قائد القوات الأسبانية فى كوبا ضد الثوار الكوبيين ،

وهكذا رحب الجنرال كامبوس به ، وفى الوقت ذاته فإن الثوار أنفسهم أحسوا بأهمية الحركة التى يقومون بها لأن الصحافة الانجليزية بعثت من يمثلها لتتبع أطوار معارك الثوار ضد الحكومة الأسبانية المحتلة .

وارتضى تشرشل الحياة فى كوبا ، كما يقول دائما بأنه يقبل على المعركة بوجه باسم ، واحتفى الأسبانيون به ، بالرغم من أن الطعام الذى كان يقدم للجنود كان رديئا وبالرغم من الحشرات المؤذية التى كانت تهدد الجنود دائما وكانت المعارك بين الفريقين متقطعة . . وأحياناً يسود الهدوء بينهما حتى لا يكاد المرء يعتقد أن هناك نزاعاً بين الطرفين . . سوى بضع طلقات من هنا وهناك تقطع هذا الصمت المخيم

وقبل أن يرحل ونستون تشرشل من كوبا قلده الجنرال كامبوس ميدالية العسكرية الأسبانيـة من الطبقة الأولى تقديرا له .

* * *

عندما عاد تشرشل فى ربيع عام ١٨٩٦ إلى لندن ، وجد « المجتمع » الانجليزى يستعد لاحتفال اليوبيل الماسى للملكة . . وكانت الطبيعة إذاك فى أبهى حللها ، وقد كان تشرشل قد قدم وفى

جعبته الكثير من الروايات والمغامرات التى صادفها فى هافانا والأنباء الكثيرة على الكوبيين وأسلحتهم ووسائل مقاومتهم للأسبان . . كل هذه الأشياء كانت مادة خصبة استغلها تشرشل فى أحاديثه التى رواها بعد قدومه وفى مذكراته التى كتبها وفى مقالاته التى نشرها فى تلك الفترة من حياته .

وكان تشرشل فى الانتظار للإبحار مع فرقته « فرقة الهوسار الرابعة» إلى الهند لتحتل معسكرها فى «بنجالور» عاصمة إقليم ميسور وكان من المقدر أن تظل هذه الفرقة فى الهند بضع سنوات .

ولكن هذه الحياة العسكرية التى سيقبل عليها لم تكن لتستهويه فلقد كان يرى فى الحياة العسكرية ، رأياً مخالفا ، ليست هذه الحياة المترفة المعالية الروتينية التى يحياها الضباط الانجليز فى المستعمرات. لا هم لهم سوى لعب البولو والتردد على الأندية والثرثرة . . إن الحياة الجندية لديه هى هذه الحياة التى تكون فى الميادين . وفى الخنادق . . وفى المعارك . ولقد اكتشف أن الضباط الانجليز « الفرسان » فى الهند لا يعيشون إلا لشىء واحد هو « البولو » ولا شىء غير ذلك قط . حياة عاطلة من كل شىء وليس فيها ما يستهوى إلا العقل البليد والجسم الخامل .

عند ما كان فى بلاده ، كان قد بدأ يفكر فى شئون المجتمع وفى المسائل الدولية فى عمق واهتمام . . فلما توجه إلى الهند بدأ

يقرأ ويعكف على الاطلاع بدلا من الانصراف إلى لعبة البولو فانصرف إلى قراءة التاريخ والفلسفة والعلوم .. قرأ لجيبون وماكولى وداروين ومالتس وشوبنهور وأفلاطون . . وكان هذا الاطلاع يعتبر شيئاً عجيباً بالنسبة للضباط الانجليز الذين اشتهروا بالخمول فى تلك المستعمرات التى كانوا يجدونها واحة للاستمتاع بالملذات واللهو الفارغ واشباع نزواتهم فى الاستعلاء والسيطرة . بينما عقولهم جوفاء فارغة . أما هو فمضى يتزود بتلك المعارف عساه يثقف نفسه بنفسه بعد أن أدار ظهره للجامعة وبعد أن كان فشله فى دراسته الأولى ظاهرة بينة .

وكان تشرشل قد صمم أن يدرس ويتثقف وأن يتفهم مايقرأه وأن يحقق مايروقه فى القراءة عملا وفعلا ! كانت تلك هى التجربة الحقيقية لعقلية «مغفل هارو الجاهل» ليثبت من نفسه شيئاً ، وليس مجرد ضابط عاطل من الثقافة الذهنية بأوسع مداها وآفاقها .

وكانت رحلته الأولى — فى الأجازة — من الهند فرصة ذهبية له إذ أتاحت له التعارف على بعض الأصدقاء الذين اعتز بهم إعتزازاً كبيراً فى مستقبل حياته . فبينما كان على سطح السفينة التقى بأيان هاميلتون وأخذا يتداولان مليا فى الأخطاء والحسنات الخاصة بحرب البلقان الأخيرة . . وكان توافقهما عجيباً فى نظرتهما المشتركة إلى الحياة العسكرية ومعانيها ورغبتهما المتأججة

فى النزوع إلى حب المخاطرات والولوع بالمغامرة . . بيد أنهما كانا فى انتمائهما الحزبى على طرفى نقيض، فبينما كان تشرشل يناصر وجهة نظر حزب التورى فى مساندة تركيا ، كان هاميلتون يناصر وجهة نظر حزب الأحرار فى معاضدة اليونان . وثمة صديق آخر التقى به وتوطدت صلته معه فى أثناء رحلته إلى لندن أيضاً ، هو سير بيندون بلود، وكان من القواد اللامعين . . وازدادت هذه الصلة توثقا بعد ذلك . وكان محور توافقهما حبهما المشترك المغامرة فى ساحة القتال والتلهف إلى المعارك . . ولقد حدث فى السنة التالية من تعارفهما وفى شهر يوليو بينما كان تشرشل فى أجازته متجها إلى لندن ، إذ وافته الأنباء بقيام ثورة اقليم باثان فى الهيمالايا . . وأن الحكومة البريطانية أوفدت لإخمادها حملة على رأسها سير بيندون بلود .

ولم يكد تشرشل يعلم ذلك، حتى أبرق إلى صديقه سير بيندون يذكره بوعده بأن يشتركا سوياً فى المعارك ، وظل تشرشل ينتظر الرد على برقيته عند كل ميناء ترسو عليها السفينة التى تقله إلى انجلترا وأخيراً وصلته رسالة فى بومباى تفيد بأنه يرحب بقدوم تشرشل كضابط مراسل حربى . وكان هذا الإجراء يعتبر من الإجراءات غير المعقدة فى تلك الأيام .

واستطاع تشرشل أن يتعاقد مع إحدى الصحف الهندية الهامة

وتدعى « الله آباد بيونير » لموافاتها بالأنباء اللازمة كما تعاقد من قبل مع صحيفة ديلى جرافيك من قبل أثناء وجوده فى كوبا . كذلك اتصل تشرشل بوالدته التى تمكنت بدورها من مقابلة المختصين فى صحيفة ديلى تلجراف اللندنية وعهدت إليه هذه الصحيفة بموافاتها بالأنباء الحربية . واستطاع تشرشل أن يظفر بنجاح باهر بظهور تحقيقاته الصحفية التى احتلت عنوناً مثيراً عن « قصة معارك مالاكاند » .

ولقد تناول تشرشل بالتعليق فيما بعد المشقة التى يلقاها المراسل الصحفى فى هذا الشأن بقوله «أنه من الأسهل على الإنسان أن يصنع الأنباء بنفسه من أن يحصل عليها ... أن يكون المرء ممثلا أسهل عليه من أن يكون ناقداً . . » .

كان تشرشل دائماً كصحفى يتخذ هذا الشعار : استفد من كل الإمكانيات والفرص كضابط حربى ، أو كعضو فى البرلمان للحصول على الأنباء واستقائها . . ثم قم بتحريرها بعدئذ فهى ولا شك جديرة بالاهتمام . . وكان من الصعب على المرء أن يفرق فى وادى ما ميند بمنطقة الهيمالايا بين تشرشل الملازم الثانى بفرقة الهوسار الرابعة وفرقة المشاه الحادية والثلاثين بالبنجاب وبين تشرشل المراسل بصحيفة بيونير الهندية وديلى تلجراف اللندنية . فقد كانت كل وظيفة تخدم الأخرى ! وقد جاء فى أحد التقارير

العسكرية عن المجهودات التى قام بها كمراسل صحفى للحصول على الأنباء . أنه كان يقوم بواجبه على نحو مثير فى المواقف الحرجة الدقيقة .

وفى الحقيقة فإن هذا ليدل دلالة أكيدة على أن تشرشل عرف كيف يستغل عمله كضابط فى خدمة الصحافة وأن يعود عليه ذلك بالربح المادى . وأن يشبع فى الوقت ذاته رغباته الأصيله فى حب المغامرات أنه فى الحقيقة ضابط من طراز عجيب !

ولقد أمضى تشرشل فى هذه الحملة عدة شهور ، وسط الجبال والوديان وليس ثمة شك أن وجوده فى تلك المنطقة النائية اكسبته خبرات وتجارب جمة فى الاحتمال ، والتجلد، وخاصة أن الإنجليز كانوا يحاربون ثواراً يعرفون طبيعة بلادهم ويدركون تمام الإدراك شعاب الجبال والوديان أكثر من أعدائهم المستعمرين الإنجليز وهذا مما زاد من الإضناء الذى عاناه تشرشل فى تلك الأيام . . . ولكن هذه المعاناه أفادته صقلا فى دراسة نفسيات ذلك « العدو » بل أنه كما قيل لم يتمالك أن يبدى إعجابه بأولئك الثوار .

وكان هذا أيضاً سبباً فى ظهور تشرشل ككاتب ، لاذع وناقد جرىء ، حتى لقد نال كتابه الذى نشره عن تلك المعركة الدائرة فى منطقة الهيملايا بالهند إقبالا عظيما ، وجاء رواج ذلك الكتاب دليلا قوياً على مدى قدرته فى إيراد الحوادث وسردها على نحو يهز

المشاعر ويبعث على الاهتمام . ولم يقتصر الأمر على رواج هذا الكتاب فحسب ، بل نال تقديراً فائقاً ، حتى أن برنس أوف ويلز وهو ولى عهد انجلترا بعث إليه برسالة يسجل فيها إعجابه بمؤلفه . وكان هذا حافزا لتشرشل الشاب الذى كان وقتئذ فى الثانية والعشرين من عمره للاعتزاز بذلك . . وكان هذا أيضاً يعتبر بالنسبه له خطوة كبيرة فى طريق النجاح .

وحتى يمكن لنا أن نقدر وقع هذا فى نفسه ، يمكننا أن نذكر بأنه كان يعلم بأنه كان تلميذاً فاشلا وأن نجاحه فى كلية ساند هرست كان نجاحا بدرجة ضعيفة جعلته فى مؤخرة الناجحين ، وأن والده ذاته كان يائساً أو مستسلماً للأقدار بأن ولده ونستون تشرشل على هذا الحظ من الكفاية وارتضى هذا الواقع وتقبله .

فإذا به يرى نفسه ، وقد صار « نجما » وأنه « نجح » فى مهمته الصحفية كضابط حربى ، وأن كتابه « قصة معركة ما لا كاند » قد لقى إقبالا ورواجاً كبيراً وأن ولى عهد انجلترا بعث إليه برسالة تقدير .

كل هذه الأمور أحيت الثقة فى نفسه . ولكن الغرور لم يداخله بل صمم على أن يمضى قدما .

إن شخصية تشرشل فى هذا الحين تبلورت على نحو نستطيع

أن نجمله فى أنه رجل أقرب اتصالا بالصحافة من كونه جندى مقاتل، صحيح أنه صحفى من طراز عسكرى يجد بغيته فى ميادين المعارك الحربية ولكنه أبعد من أن يكون ضابطاً بالمعنى التقليدى لهذا الاسم. فإن الحوادث التى تلت ذلك تؤيد وجهة النظر هذه ، فقد حدث أن قامت فى ذلك الحين معركة أخرى فى الهند بين انجلترا المحتلة وبين قبائل الافريدى المشهورة بالبأس وشدة المراس . وكان طبيعياً أن تتغلب الروح الصحفية المغامرة على تشرشل أن يسعى للانضمام إلى الحملة العسكرية التى رتبتها انجلترا للقضاء على حركة القبائل الأفريدية الثائرة . إن من وجهة النظر العسكرية البحتة ، لم يكن فى استطاعة أى ضابط فى أى جيش أن يفكر بهذا المنطق، فعندما اندلعت الثورة فى كوبا ضد الاسبانيين بذل مساعيه حتى سافر إلى كوبا، وعندما نشبت المعركة بين الثوار فى الهند لم يهدأ حتى ظفر بأن يكون مراسلا حربياً لصحيفة بيونير الهندية والديلى تلجراف اللندنية.. وها هى معركة جديدة تلوح فى الأفق .. معركة القبائل الأفريدية التى جردت لها الحكومة الانجليزية حملة تأديبية يقودها قائد من أمهر قواد انجلترا وقتئذ هو السير ويليام لوكهارت ليخوض المعركة المعروفة باسم « وادى تيراه ».

إن هذه المعركة هى الآن من الوجهة الصحفية تحتل فى الصدارة المكان الأول بعد أن تضاءلت المعركة الأولى أو كادت تخمد

وقلت أخبارها واستوفاها تشرشل فى كتابه الذى ألمعنا عنه .
ولم يعد فيها مزيد من الكلام عنها .

واستطاع تشرشل بمعاونة صديقه ايان هاميلتون وهو الرجل الذى اشترك فى معركة غاليوبولى بعد ذلك بثمانية عشرة سنة ، استطاع تشرشل أن ينال قبول قائد الحملة السير وليام لوكهارت على أن يصحب تشرشل فى الحملة التأديبية . . وجاءت هذه الموافقة بعد أن كان قائد الحملة قد رفض طلبه فى بادىء الأمر ، بيد أن تشرشل لم يجد فى هذه الحملة ما يرضى طموحه ، فان معاركها ما لبثت أن خمدت وعاد تشرشل يعانى السأم من جديد .

وفى ذلك الحين كانت الأنباء تتوالى من أفريقيا عن أحداث السودان . . وكان تشرشل يتوق إلى أن يكون له نصيب فى هذه المعارك فهو يذكر أنه عند ما كان فى العاشرة من عمره أن والده حمل حملة شعواء فى مهاجمة جلادستون عن المصير الذى لقيه الجنرال غوردون فى السودان ، وألفى تشرشل فرصته السانحة فى هذه المناسبة ليشترك فى معارك السودان مع الحملة الإنجليزية الاستعمارية ، وكان المهــــدى قد مات وتولى خليفته زمام الأمر .

وكان لورد كتشنر يعارض فى قبول تشرشل بين أفراد الحملة ،

ولكن تشرشل كان يستعين بوالدته — كما استعان بها من قبل — وكذلك أصدقاؤه فى تحقيق مآربه وكذلك كان كتابه الذى أصدره «قصة معارك ماكالاند» كل هذه الأطراف كانت توازره وكان السبب الذى يدفع كتشنر إلى معارضة قبوله، ما نشره من قبل فى انتقاد القواد البريطانيين وتطاوله عليهم وسخريته من بعض الأساليب المتبعة فى الجيش البريطانى.

وفى ذلك الحين، كان تشرشل فى أجازته بلندن وكان اللورد ساليسبورى هو رئيس الوزراء وقتئذ، وكان قد سبق له أن قرأ كتاب تشرشل وأعجب به فلما انتهت إليه رغبة تشرشل الملحة فى الاشتراك فى حملة السودان، دعاه إلى مقابلته، ودار بين الإثنين حديث طويل وانتهى برجاء وإلحاح من تشرشل أن يبذل اللورد ساليسبورى نفوذه لدى السردار كتشنر ليرجع فى قراره.

فأرسل سالسبورى برقية مهذبة رقيقة إلى كتشنر يرجوه فيها قبول تشرشل فى الجملة، ولكن رد كتشنر كان متقضباً وجامداً لا يحمل إلى كلمة واحدة هى «كلا».

ولكن تشرشل لم يداخله اليأس، فمضى يجرب مسعاه عن طريق آخر، وذلك بتأثير والدته اللادى راندولف على السير افلينى وود القائد البريطانى، والذى كان يلى كتشنر فى منصبه،

فقام الرجل بحل وسط وهو أن يذهب تشرشل إلى السودان ، كمراسل حربى — ولكن دون أى ارتباط أو تبعة للحكومة البريطانية نحوه فى حالة إصابته بأى حادث ، وكذلك دون مرتب واتصل تشرشل بصحيفة المورنج بوست فعينته مراسلا لها فى السودان .

ومضى منتصراً بتحقيق غايته إلى السودان ولم يكن معنى هذا أنه فقد صفته العسكرية بل اعتبر من رجال الفرقة ٢١ الخيالة .

ولكن الطريق لم يكن مفروشاً بالورود أمامه ، فان لذعاته ومضايقاته التى بدت فى كتاباته السابقة كانت لها أثرها فى نفوس الضباط ، وفى الوقت ذاته فان المهام التى كانت ملقاة على عاتق كتشنر ،كانت أكبر بكثير من أن يشغل تفكيره فى أمر هذا الشاب .

وكانت المعركة الحاسمة على الأبواب ، وكانت الحملة الانجليزية قوامها نحو ٢٠ ألف جندى يواجهون أكثر من ٦٠ ألفاً من الدراويش ، وكانت حرارة الشمس فى أوجها فى ذلك اليوم التاريخى يوم ٢ سبتمبر عام ١٨٩٨ . ودار القتال رهيباً بين الفريقين وكان الدراويش يقاتلون باستماتة ويذكر تشرشل فى مذكراته بأنه قتل بمفرده ستة من الدراويش وهو على صهوة جواده .. بينما

كان الدراويش يخوضون المعركة بسيوفهم المشهرة أمام عدوهم الذى تسلح بالبنادق والمدافع .

ومن عجائب الأقدار — وهى التى لعبت دوراً هاماً فى حياته دائماً — أن زميله الملازم ثانى جرنفل الذى حل محلة فى فرقته التى سافرت قبل قدومه إلى السودان لقى حتفه فى تلك المعركة كما تمزقت الفرقة ذاتها بالخسائر الفادحة التى أصيبت بها فى تلك المعركة . وكان من نتائج هذه الحملة لدى تشرشل أن أصدر كتابه « حرب النهر » فى مجلدين كبيرين . وكسائر مؤلفات تشرشل الأخرى ، قام بتسجيل كافة انطباعاته وتجاربه ومشاهداته عن تلك الحملة وقد ذكر صراحة أن عدد الأسرى من الدراويش كان قليلا جداً ومعنى هذا بوضوح أن عدد القتلى كان كبيراً . وهذا يدل على أن قائد الحملة كان يرضيه هذا الاجراء إذ أن الجماهير فى انجلترا كانت تنادى بأخذ الثأر من مصرع الجنرال غوردون ، وعلى هذا فان رجال الحملة الانجليز كانوا ينظرون إلى أعدائهم ، نظرة خالية من روح الجندية بل هى أقرب ما تكون إلى أن العدو الذى يلاقيهم هم من مرتبة أدنى ولقد حمل تشرشل على تدمير مقبرة المهدى وعلى التمثيل بجثة المهدى ، إذ ألقيت جثته فى النيل ، وحملت رأسه إلى لندن كعلامة للانتصار ! وذلك بأمر كتشنر ذاته .

ولقد أبدى تشرشل امتعاضه وتنديده بهذه الفعلة بقوله : «إن هذا العمـــل الدنىء مثير للاشمئزاز » .

وبعد أن انتهت معركة أم درمان ، ترك تشرشل خدمة الجيش العامل ، بالرغم من نصيحة السير افلينى وود .. وكان السبب فى ذلك يعود إلى عاملين ، عامل مالى وآخر سياسى . فإن الصحافة كانت تجتذبه وليس ثمة ريب فى أن المال الذى يمكنه أن يحصل عليه منها أكثر بكثير من الجيش . . وكذلك كان يبدو له أن حياته فى الميدان السياسى ، ستكون أوفى حظاً .

فهل كان تشرشل يفكر تفكيراً مجرداً من الهوى عن حقيقة نفسه ؟ من المؤكد أن أطماعه ، أن يكون شخصية بارزة وأن يحقق الآمال الواسعة التى يصبو إليها لم تكن تتحقق له بأية حال من الأحوال فى نطاق رتب الجيش العسكرية . . ومن المؤكد كذلك أن الجيش بالمعنى التقليدى لم يكن يحتمل شخصية كشخصيته . . ولكنه فى الوقت ذاته لم يكن قد فعل الكثير .. سوى تأليف كتابين وعدة مقالات نشرتها له الصحف . . وعلى أية حال فإن مستقبله يبدو أكثر أملا فى المحيط السياسى وفى ميدانه ، ولابد له أن يخوض المعارك السياسية ، ليجرب حظه وليرضى غريزة حب المجالدة التى تثور فيه .

وكان تشرشل قد تحرر من الجيش ، وكان يتكسب من

وراء كتاباته آلافاً من الجنيهات ، وكان اسمه قد أخذ فى الذيوع والانتشار بعد أن كتب عن أمريكا وآسيا وأفريقيا .

حرب البوير

وجاءت حرب البوير بجنوب أفريقيا .

وكان الرأى العام فى انجلترا يقدر بأن هذه الحرب ستنتهى فى خلال ثلاثة شهور وأنها لن تكلف أكثر من عشرة ملايين من الجنيهات . .

ولكن حرب البوير ظلت نحو ثلاثة أعوام وكلفت انجلترا أكثر من مائتى مليون جنيه . .

وهكذا كانت تقديرات وزارة الحربية البريطانية بعيدة من الصواب .

وكان الضباط المحترفون يرون أن الأعداء من البوير ليسوا سوى فئات من الهواة .

وأقلع ونستون تشرشل على نفس السفينة التى كانت تحمل السير ردفرز بولر القائد البريطانى . وكان تشرشل فى هذه المرة أيضا مراسلا حربياً . وعندما وصلت السفينة الحربية التى تقل تشرشل كانت قوات السير جورج هوايت قائد الحملة قد أودى بها رجال البوير فى « مثلث ناتال » .

وكان لا بد لتشرشل أن يكون في المعركة ، حتى يستطيع أن يبرق بأنبائها فألقى بنفسه فيها ، مختاراً أحد القطارات الحربية المكتظة بالجنود والمؤن والذخائر . وكان تشرشل فى حالة من المرح وهو يستحث الوقت للوصول إلى الميدان . . فإذا بالقطار يقف فجأة بعد أن ضرب رجال البوير الخط الحديدى . . . ومضى تشرشل يثير عاصفة بين الجنود ، وخاصة سلاح المهندسين قائلا : « إن المرء لا يصاب مرتين فى يوم واحد » .

ولكن القطار الحربى ظل قرابة ساعة هدفاً للنيران . واستطاع بعض وحدات الجيش الميكانيكية أن تنجو وأن تنسحب إلى بلدة استكورت ، تاركين تشرشل وباقى رجال البحارة الحملة وراءهم .

وكان الشخص الذى أسر تشرشل من البوير هو لويس بوتا . وكان بوتا فى ذلك الحين لا يعدو أن يكون مجرد مقاتل ريفى عادى ومن غرائب الأقدار ، أن نشهد بعد ذلك بثلاثة أعوام أن يكون بوتا هو الذى يتكلم فى لندن باسم شعب البوير وأن يكون تشرشل المتكلم باسم بريطانيا وأن يرتبط الاثنان بعد ذلك بصداقة وطيدة وأن يشترك تشرشل فى التسوية التى وضعت للحكم الذاتى لاتحاد جنوب افريقيا .

وعند ما أسر تشرشل ، عامله رجال البوير معاملة رقيقة ، ولم يشاءوا أن يعاملوه كمدنى ، بل كرجل عسكرى وعلى هذا فقد وضع

فى السجن . . بينما كان هو يصر على معاملته كمدنى ، ومن حسن حظه أن عامله البوير كعسكرى إذ وضع سجيناً فى بريتوريا ، وكانت الحراسة عليه غير مشددة على النحو المتبع فى السجون المدنية مما أتاح له فرصة الهرب . ولم يكن لديه ما يفعله فى خلال مدة الأسر سوى أن يناقش ويجادل غيره من الأسرى وأن يمضى بقية الوقت فى لعب الورق ، وفى تدبير المؤامرة للهرب . . . ثم لم يلبث أن استطاع الهرب بمفرده بأن تسلق جدران السجن ثم مضى على قدميه مخترقاً بريتوريا حتى صادفه قطار بضاعة فوثب إليه . . ثم مضى فى طريقه لا يعرف أين يذهب . . ومضى عليه نحو يومين وهو يضرب فى فجاج الأرض حتى لمح بيتا على الطراز الانجليزى ، فطرقه ، وكان المنزل لرجل انجليزى هو جون هوارد وكان يعمل مديراً لأحد المناجم وحيث لقى عنده أحد أصدقائه القدامى المستر ديو سناب وتمكن تشرشل من الخروج متنكراً ليبعث برسائله الحربية إلى صحيفته فى لندن بعد أن قاسى ألوانا مروعة من المشاق ، فى سبيل تحقيق سبقه الصحفى .

أما الثوار البوير فقد رصدوا مبلغ ٢٥ جنيها لمن يأتى به حياً أو ميتاً بعد أن أذاعوا أوصافه فى كافة الأرجاء . . وكان لأثر فراره من الأسر هزة من الفرح شملت ناتال ومدينة الكاب وبريطانيا وأخذ الناس يتحدثون عن بطولته . . بينما مضى هو أيضاً ينشر

في صحيفة المورنج بوست حقيقة الموقف الحربى ، دون أن يبالى باستياء بعض رجال الجيش وكانت انتقاداته موضع الاعتبار لدى أولئك الذين أدركوا معنى دعوته فى سبيل الاستقرار . بعد وصوله إلى انجلترا .

لقد كانت حرب البوير تجربة مريرة لانجلترا كلفتها غالياً وخاصة بعد أن حاصر البوير ـ مدينة لادى سميث ومانكنج ، ولولا المساعدات القيمة التى أمدت بها المستعمرات البريطانية انجلترا فى ذلك الحين لكانت خسائرها أفدح . . ولم يعلن السلم وانتهاء حرب البوير إلا فى أول يونيه عام ١٩٠٢ ، وكانت الملكة فكتوريا قد ماتت قبل ذلك فى ٢٢ يناير عام ١٩٠١ ولقد قيل أن الخسائر التى منيت بها بلادها حزت فى نفسها فساءت صحتها . . . بسبب اندحار جيوشها فى جنوب افريقيا .

وعاد تشرشل مرة أخرى إلى جنوب افريقيا ، بعد أن استقر السلام ، وبعد أن كان قد هرب من الأسر قبل ذلك بسبعة شهور ، وكان من أوائل الذين دخلوا مدينة لادى سميت بعد استردادها ، ثم توجه إلى بريتوريا ليطلق بنفسه سراح اخوانه الأسرى الذين تركهم بعد فراره من الأسر .

وقد تولى تشرشل منصبه فى وزارة المستعمرات فى حكومة السير هنرى كامبل بانرمان (من عام ١٩٠٥ — ١٩٠٨) وتولى

بنفسه شرح سياسة كامبل فى مجلس العموم تجاه المستعمرات وحتى فى خلال الأزمة الخاصة بحرب جنوب أفريقيا كان له وجهة نظر متحررة فى كيفية معاملة البويرآ وسياسة الحكم الذاتى للترنسفال ومستعمرات نهر أورانج ، داعياً إلى اتحاد جنوب افريقيا ، بطريقه ماهرة دلت على بعد نظره السياسى ودهائه أمام خصومه من المحافظين الجامدين وما لبث أن تولى مركزة وزيراً للتجارة عام ١٩٠٨ فقام بعدة اصلاحات جوهرية فى انعاش تجارة انجلترا وخاصة مع غيرها من الدول ونجح فى هذا المضمار نجاحاً كبيراً .

وأخذ نجم تشرشل يتألق فى عالم السياسة معتمداً فى ذلك على بلاغته الخطابية ، وتدفقه وحيويته التى كان يستطيع بها تحريك وتجميع الرأى العام حوله . . فلقى نجاحاً متصلا فى أثناء مناقشات مجلس العموم لمختلف المسائل والأحداث .

حادثة أغادير

وشاءت الأقدار — التى طالما لعبت دورها فى تألق نجم تشرشل — أن تقع أزمة أغادير عام ١٩١١ .. أو على وجه التحديد فى يوليو عام ١٩١١ عند ما انطلقت احدى سفن المانيا الحربية « بانثار » إلى ميناء أغادير على الشاطىء المراكشى .

وكأنما كانت هذه الأقدار تعد هذا الحادث لينال إسم تشرشل مزيداً من الشهرة .

وكانت ألمانيا تسعى إلى أن يكون لها موطىء قدم فى البحر الأبيض المتوسط ، وكان الجو الدولى ينبىء بأن ثمة أحداث مقبلة وكان المستر لويد جورج قد أطلق تحذيره لألمانيا فى أحدى خطبه عن النتائج الوخيمة إذا لم تستدع سفينتها الحربية من أغادير . . وكان الفرنسيون الذين يحتلون مراكش يتطلعون إلى انجلترا لمعاونتها فى أزمتها مع ألمانيا . بيد أن لويد جورج أراد أن يجرب الوسائل الدبلوماسية مع ألمانيا فى حل هذه الأزمة معتقداً بأن هذا الأسلوب أجدى وأحسن .

ولكن تشرشل كان يختلف فى وجهة نظره عن لويد جورج ، إذ كان يعلم مطامع ألمانيا ، وأن الأسلوب الدبلوماسى لن يؤدى إلى

نتيجة وأن ثمة علامات ونذر تبدو فى الأفق البعيد . أن الحرب مع ألمانيا ليست شيئاً ممكنا بل هى آتية حتما . وأن واجب انجلترا أن تستعد لهذه الحرب الحتمية، وأن ألمانيا قدأعدت أهبتها للحرب وأنها الآن تتحرش بفرنسا .

وكان رئيس الوزراء اسكويث يرى هذا الرأى أيضاً . . . ويؤمن أن طبول الحرب قد أخذت تدق .

ومن أجل هذا دعا اسكويث مجلس الدفاع القومى للاجتماع فى اسكتلندا لتدارس الأمر فى أكتوبر عام ١٩١١ بينما العبارات « قوة ألمانيا .. أطماع ألمانيا .. جيش ألمانيا المجهز .. أسطول ألمانيا » تملأ أعمدة الصحف كل يوم

ولكن حدث فى ذلك الحين أن وقع اختلاف فى الرأى بين الاميرالية البحرية وبين مجلس الحرب عن مدى إمكان التعاون بين أسلحة الجيش .

وأخيراً اتفق الرأى ، عملا بوجهة نظر تشرشل « أن يكون الأسطول على أهبة الاستعداد فى اللحظة التى تقوم بها ألمانيا بالهجوم » .

وتلك كانت الخطة التى يريدها والتدبير الذى ينشده حتى لا تؤخذ بلاده على غرة .

ومع أنه أمكن تفادى الإلتحام بين انجلترا وألمانيا فإن انجلترا أيقنت أن ساعة الحرب مقبلة لا محالة ولهذا فقد أسند اسكويث إلى تشرشل منصب اميرالية الأسطول ليجعل هذا الأسطول على أهبة الاستعداد عند وقوع أى هجوم ألمانى كما أسبقنا ، أما السبب فى اختيار تشرشل فى هذا المنصب فيعود إلى الأزمة التى وقعت بين مجلس الحرب البريطانى والاميرالية البريطانية المتعلقة بالاستراتيجية التى يجب اتخادها فى حالة الحرب .. فقد قال هالدان فى مجلس الحرب بأنه سيقدم استقالته من المجلس ما لم تقبل الاميرالية السير وفق خطط المجلس . وكاد الامر يستفحل لولا أن اختار تشرشل لمنصبه الجديد لإيجاد التوافق بين السلطتين .

ولم يكد تشرشل يتولى زمام منصبه حتى مضى يزود السفن الحربية بمزيد من المدافع الحديثة من العيارات المختلفة ويضيف إلى الأسطول المزيد من القطع الحربية ، وكان يؤمن بأن ساعة الحسم بين انجلترا وألمانيا تلوح فى الأفق وأن الواجب الأول هو الاهتمام بالأسطول وتجديده مهما كلف ذلك من عناء ومال ومعارضة. وكان أول مافعله تشرشل فى هذا الشأن الاتصال بفيشر الذى كان القائد الأول للأسطول والذى استقال قبل ذلك من خدمة البحرية منذ عام تقريباً ، وكان تشرشل قد التقى بفيشر قبل

ذلك فى خلال أجازة له ببياتريز عام ١٩٠٧ وارتبط الاثنان بمودة وثيقة وكان فيشر عندما التقى به يبلغ السبعين من عمره ، وكان تشرشل فى الثالثة والثلاثين . . وقد أمضيا فى يوم تعارفهما ليلة بطولها يتحدثان عن أمجاد الأسطول وعن أيام نلسون الخالدة فى تاريخ البحرية .. وألفى الاثنان أن كلا منهما يفهم الآخر ويتحدثان بلغة واحدة . . كان الأول كالنبيذ المعتق والآخر كالنبيذ الجديد يحسن مزجهما . . وقد تجدد حديثهما بعد حادثة أغادير ، إذ رأيا فى هذه الحادثة حافزا بضرورة إعادة النظر فى أمر الأسطول بعد أن مضت ألمانيا فى تعزيز قواتها البحرية لانتزاع سيادة البحار من انجلترا . . واتخذ تشرشل من فيشر مستشارا غير رسمى فى شئون الأسطول عند بدء الإصلاحات الواسعة التى قام بها لتجديد شباب الأسطول وتدعيمه .

ولم تمض سوى بضع شهور على تولى تشرشل مهام منصبه فى الاميرالية البريطانية حتى بدأ الأمر يختلف . . هزات عنيفة تليها هزات أعنف ، لتخليص الأسطول من ركوده وتخلفه وتزويده بالعتاد والأسلحة وإضافة قطع جديدة إليه . وبالرغم من تهكم بعض القدامى من السياسيين على تشرشل ومنهم لورد شارلز برسفورد الذى انبرى فى البرلمان يندد بأساليب تشرشل . فإن اسكويث كان

يعلم جيدا الدور الذى يقوم به تشرشل فلم يعر الاعتراضات المنبعثة من المدرسة القديمة أى اهتمام .

وفى خلال صيف وخريف عام ١٩٢١ كان تشرشل يمضى أيامه على ظهر يخت الامبرالية «انشانتوس» وكان يحس بحاسة الإدراك أن رائحة الحرب تقترب . . ففضل أن يكون على مقربة من الأسطول ليشهد بعينيه كل يوم التغييرات المستمرة المستحدثة فى البحرية البريطانية . . بينما اليخت ينتقل به من ميناء لآخر .

وفى أوائل العام الجديد ، توجه إلى مالطا مع رئيس الوزراء ليتناول بالبحث مع اللورد كتشنر الخطط المتعلقة بالدفاع الحربى .

وكان قد تصافى مع كتشنر بعد حملته عليه بسبب انتهاكه لمقبرة المهدى فى السودان .

ولم يكد العام ينتهى حتى كان التناسق والتوافق كاملا بين أسلحة الجيش بعد التنافر الذى كان يسود بينها .

وبينما كان تشرشل مشغولا بتدعيم الأسطول البريطانى ، وقد لاح شبح الأزمة الايرلندية . إذ به يطالع فى الصحف خطبة امبراطور ألمانيا الذى قال فيها « إن مزيدا من السفن ستضاف إلى الأسطول الألمانى » وكان تشرشل إذ ذاك فى جولة له متعلقة

بالأسطول فى ميناء بلفاست فلم يتمهل حتى يصل إلى لندن بل رد على الفور على خطاب الامبراطور قائلا « إن الأسطول العظيم بالنسبة لنا ضرورة أما لألمانيا فيعتبر لوناً من ألوان البذخ . فهو ضرورى لوجودنا . . وهو إسراف لهم » .

وهاجت الصحف الألمانية على هذا التعبير « الوقح » الذى أدلى به باعتبار أن الأسطول الألمانى شىء من الترف ! ولكن تشرشل لم يتزحزح عن موقفه ، بالرغم من أصوات المعارضة ، بضرورة الاهتمام الكلى بالأسطول لأنه الوسيلة الوحيدة لإبقاء انجلترا متفوقة وعلى قيد الحياة .

وهكذا شهدت سنة ١٩١٣ مزيدا من الاهتمام بالأسطول ومزيدا من تزويده بالمدافع بعد أن مضت ألمانيا فى إمداد سفنها الحربية بأنواع جديدة من المدافع . . . . وفى شهر مارس عام ١٩١٤ عندما عرضت ميزانية الأسطول وكانت تحوى أرقاما خيالية زيادة عن سابقتها ارتفعت من جانب بعض أعضاء حزب الأحرار الاحتجاجات على هذا الإسراف ولكن الحكومة أجابت على ذلك فى مجلس العموم بكلمة قاطعة « أننا لا نشعر بأننا نؤدى واجبنا إزاء الوطن إذا فعلنا غير ذلك » .

لقد كانت ثقة تشرشل المتزايدة بنفسه سبباً فى تكاثر خصومه

عليه فى مواقف كثيرة . وكان هذا من أسباب خروجه من حزب المحافظين فى أوائل هذا القرن لاختلافه معه بشأن بعض الرسوم الجمركية . فانضم إلى حزب الأحرار عام ١٩٠٥ وكافأه هذا الحزب بإسناد وكالة المستعمرات إليه وتوثقت صداقته بلويد جورج فى ذلك الحين .

الحرب العالمية الأولى

كان مقتل الارشيدوق فرانز فردنياد ولى عهد النمسا فى يونية عام ١٩١٤ الشرارة التى اندلعت منها نيران الحرب العالمية الأولى.

وكان تشرشل قد عهد إليه بمنصب آخر . . فلم تكد تنشب الحرب حتى عاد تشرشل إلى منصبه فى الاميرالية .. ولم يكد يتولى مقاليد منصبه حتى أعلن تعبئة كل سفن انجلترا لخدمة أغراضها وعندما أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى أول أغسطس من تلك السنة كان الأسطول كله على أهبة الاستعداد .

يقترن اسم تشرشل فى خلال الحرب العالمية الأولى بموقعة غاليوبولى (١٩١٥) وقد اختلف الكتاب فى إسناد مسئولية الهزيمة المروعة التى لحقت بانجلترا على يد ألمانيا وتركيا فى هذه الكارثة التاريخية . ولكن أكثر النقاد العسكريين يذكرون بأن سبب هذه الكارثة يعود إلى جهود الأسطول البريطانى العقيمة فى مهاجمة الدردنيل . . ولقد كانت الفكرة التى أوحت للحلفاء بضرورة الاستيلاء على الدردنيل وجوب فتح المواصلات بين البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الاسود لإمكان معاونة روسيا . . ولكن كان من المؤكد أنه حتى فى حالة

نجاح الأسطول فى تحقيق هذه الغاية فانه كان لا بد من معاونة الجيوش البرية بعد أن ينجح الأسطول فى عبور بحر مرمره بيد أن معظم الجيش البرى كان موزعاً بين لمنوس ومصر وفرنسا .

وكانت خطة تشرشل الأصلية فى هذا الهجوم أن تتعاون قوات الأسطول مع القوات البرية للجيش فى المعركة ولكن الذى حدث هو أن الأسطول سبق فى هجومه النزول البرى وعلى هذا الأساس أمكن تبرئة تشرشل من مسئولية الهزيمة الكبيرة التى لحقت بالحلفاء . ولقد كان الأتراك والألمان فى الوقت ذاته يعلمون تماما بأن نجاح هذه العملية سيغير مجرى الحرب كلها وكان نتيجة هذه الهزيمة أن قدم لورد فيشر القائد الأول للأسطول استقالته من منصبه باعتبار أنه وافق على عملية هجوم الأسطول ، وقد أدى ذلك أيضاً إلى وقوع أزمة سياسية عنيفة فى بريطانيا كان من نتيجتها أمام هجوم المعارضة ،عزل تشرشل من منصبه فى الاميرالية ثم عين بعد ذلك بفترة من الوقت مستشاراً لدوقيه لانكستر ثم توجه إلى فرنسا قائدا للفرقة الثالثة الاسكتلندية وعاد عضوا فى مجلس العموم عام ١٩١٦ ولكن لويد جورج الذى كان قد خلف اسكويث كرئيس للوزراء عهد إليه وزارة للتموين الحربى فمضى يحشد من أجلها كل الطاقات لتقوم بواجبها الرئيسى فى المجهود العسكرى .

وأعيد انتخاب تشرشل فى عام ١٩١٨ وكان قد بدأ دعوته بإحلال السلام مع الشعب الألمانى والحرب ضد الطغيان البلشفى».

ومضت سنوات اختلف بعدها تشرشل مع حزب الأحرار ثم عاد ثانية إلى حزب المحافظين عام ١٩٢٣ ونجح فى الانتخابات كنائب محافظ .

وانحصر نشاطه لعدة سنوات فى المحيط الداخلى فى انجلترا ولكنه فى الوقت ذاته كان يعارض سياسة مهادنة غاندى ، كرجل من غلاة المحافظين الرجعيين . . . كذلك كان معارضاً لبلدوين الذى أكره الملك ادوارد الثانى بالتنحى عن العرش بسبب زواج من اللادى سمبسون ، وكان فى هذا الموقف من المناصرين لإدوارد الثامن بل لقد أعد بنفسه الوثيقة التى أعلن فيها الملك تنحيه عن العرش . . . ثم بدأ تحذيراته من ألمانيا . . ومنوهاً بالخطر الناجم عن تزايد قوتها من جديد .

وكان يطلق تحذيراته بين الحين والآخر . داعياً إلى الاستعداد لحرب مقبلة . وكان ينادى بضرورة التسلح مع الوقوف إلى جانب عصبة الأمم .

ولكن صيحاته لم تلق اهتماما يذكر .

ولقد كان تشرشل قديراً على أن يملأ وقت فراغه ، وخاصة فى تلك الأيام التى كان فيها بعيداً عن المناصب، وكان كثيراً مايبعث

التسلية إلى نفسه فى تلك الأيام بالرسم واكتشف أنه عندما ينهمك فى الرسم فإنه لا يفكر فى أى شىء آخر . . ولقد اشترك ببعض لوحاته فى معرض باريس عام ١٩٢١ وبيعت أربعة من تلك اللوحات بمبلغ ٣٠ جنيها للواحدة وكان يوقع على لوحاته باسم شارل مورين ومن الغريب أن بعض أعدائه السياسيين وجدوا فى هذا الاتجاه مادة خصبة لسخريتهم منه . ولكنه لم يعر هذا التهجم اهتماماً .

ولقد عالج تشرشل الكتابة الأدبية فى سن مبكرة فكتب فى سن الثالثة والعشرين قصة « سافرولا » وهى تروى قصة « الثورة فى أورانيا » .

ومن كتبه الذى ذاعت أيضاً كتاب « من لندن إلى مدينة لادى سميث » وفيها يروى الكثير من تجاربه ومغامراته فى جنوب أفريقيا .

وكان تشرشل يعتز بإنتاجه الأدبى اعتزازاً كبيراً ، كما كان يهتم اهتماما بالغاً بالمحاضرات التى يلقيها ولقد قام بجولات فى الولايات المتحدة ألقى فيها الكثير من المحاضرات فى مختلف الشئون .

وبعد الأحداث التى مرت ، والتى بدأها تشرشل كراسل

حربي ، كانت الأقدار تعد تشرشل من جديد لمرحلة أخرى . مرحلة طاحنة ، قاسية . مرحلة الحرب العالمية الثانية .

الحرب العالمية الثانية

كانت أزمة تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ إنذارا باقتراب نذر الحرب العالمية الثانية . . . وأخذت انجلترا تستيقظ من غفوتها بالرغم من التحذيرات التى أطلقها تشرشل من قبل .

وفى يوم ٣ سبتمبر عام ١٩٣٩ وقع الاختيار على تشرشل ليعود إلى منصبه وزيراً للحربية .. وانطلق بعض خصومه يعددون مثالبه . ولم تلبث وزارة تشمبرلن أن استقالت من الحكم إذ أن الأحداث كانت أقوى من احتمال تشمبرلن وكانت الجيوش الألمانية قد اجتاحت النرويج . . . وفى يوم ١٠ مايو عام ٤٠ تولى تشرشل منصبه كرئيس للوزراء وفى هذا اليوم بالذات كان هتلر قد غزا هولاندا وكان خطاب تشرشل الأول فى مجلس العموم البريطانى ينم عن سياسته المقبلة « النصر » النصر بأى ثمن وكان تشرشل فى ذلك الحين فوق الخامسة والستين من عمره .

وبدأت الأحداث والهزائم تتلاحق ،فقد خرت فرنسا راكعة وتلت ذلك معركة دنكرك التى فقدت فيها انجلترا عشرات الألوف من جنودها أثناء انسحابهم من فرنسا كما فقدت فيها الكثير من سفنها وعتادها الحربى .

وفى هذه الفترة الحرجة يقول تشرشل «فى هذه الأيام من عام ١٩٤٠ صرنا منفردين بعد هزيمة فرنسا ولم يكن فى استطاعة دول الدومنيون أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمعونة اللازمة التى كنا فى أشد الحاجة إليها ، وكانت الجيوش الألمانية المنتصرة المتقنة التدريب ، والمنتصرة فى الوقت نفسه تستعد للمعركة الحاسمة الفاصلة وقد توافرت لديها الأسلحة الاحتياطية الضخمة إلى جانب مستودعات الذخائر والمصانع الكبيرة التى تم لها الاستيلاء عليها كإحدى غنائم الحرب . . وفى الوقت ذاته كانت إيطاليا قد أعلنت علينا الحرب . . . وهى تقف الآن بجيوشها الكبيرة تتربص بنا .

وفى نفس الوقت أيضاً كانت اليابان ، سيئة النظرات إلينا . . تطالبنا فى تهديد وإصرار أن نغلق طريق بورما فى وجه المساعدات المرسلة إلى الصين بينما كانت روسيا السوفيتية وقد ارتبطت مع ألمانيا النازية بمعاهدة ، تقدم إلى ألمانيا مساعدات كبيرة هامة من المواد الخام .

أما موقف أسبانيا — وهى تحتل منطقة طنجة الدولية — فإنها قد تنقلب علينا بين يوم وآخر ، وقد تنادى مطالبة بجبل طارق وقد تلجأ إلى ألمانيا طالبة منها النجدة لمعاونتها فى الحصول على جبل طارق أو فى إنشاء بطاريات هائلة من المدافع لتعوق أسطولنا من

المرور فى المضيق كذلك كانت حكومة بيتان الفرنسية قد انتقلت إلى مدينة فيشى ، ومن المرجح أن تعلن الحرب علينا بين حين وآخر . . وكان الأسطول الفرنسي فى ميناء طولون قد صار تحت يد الألمان » .

هكذا كان الموقف غاية فى السوء كما صوره تشرشل بنفسه عن تلك الفترة الحرجة الحاسمة .

ويمضى تشرشل فى إيضاح حالة بريطانيا نفسها فى هذه الآونة فيقول : « ومع أن حالتنا المعنوية لم تضعف . . فإن السؤال الذى كان يتردد على ألسنتنا هو : كيف يمكننا أن نعبر هذه الأزمات والصعوبات القائمة فى وجهنا . . كان من المعروف أن الجيش البريطانى على أرض الوطن لم يكن يحمل فى الأسلحة سوى البنادق وسوف نمضى فترة طويلة قبل أن تستطيع مصانعنا أن تعوضنا بعض ما فقدناه فى دنكرك . . . أليس من العجيب ألا يكون العالم بأسره على يقين بأن ساعة بريطانيا الأخيرة قد أزفت ؟ » .

وسادت موجة من الرعب أنحاء الولايات المتحدة على هذا المصير وكذلك الدول الحرة الأخرى . . . وكان الأمريكيون يتساءلون « هل يعتبر واجباً عليهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة

حتى يرضوا المشاعر الطيبة نحونا وإن كانت حتى هذه المعاونة تعتبر مخاطرة لا فائدة منها ؟ ، أليس الأجدى عليهم أن يوفروا الأسلحة لأنفسهم .

ورأى تشرشل أنه لابد لبلاده — ولا مناص — من أن تخوض بريطانيا معركة المصير وكان هتلر يتطلع إلى غزو انجلترا ولكن رأيه لم يكن قد استقر .. وكان مرور الأيام فى صالح انجلترا لزيادة استعدادها الحربى وتعويض ما فقدته .

وأجرى تشرشل اتصالات وثيقة مع الولايات المتحدة ، وما لبثت هذه الاتصالات أن كللت بالنجاح فأرسلت إلى انجلترا كميات كبيرة من الأسلحة الأمريكية عن طريق الأطلنطى وكان الحرس الوطنى فى كافة أرجاء انجلترا متلهفا على تسلم هذه الأسلحة وازدحمت الشواطىء البريطانية بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم الجزر البريطانية فى مجموعات ووحدات دفاعية ولم يكد شهر أغسطس سنة ١٩٤١ يحل حتى كان فى حوزة انجلترا ٢٥٠ دبابة ! ! ولكن أمريكا مضت فى معونتها الحربية بالعتاد فى كل يوم حتى ازداد عدد الحرس الوطنى وصار يتكون من أكثر من مليون ، وعندما كان ينقصهم السلاح ، كانوا يستخدمون بنادق الصيد والمسدسات الخاصة بل الهراوات .. وخلت انجلترا من الطابور الخامس !.

ويقول تشرشل أيضا عن هذه الفترة « لقد عاشت ألمانيا النازية أياماً مجيدة رائعة انتشى فيها هتلر بخمرة الانتصار . . وكان تأجيله المتوالى لعملية « سبع البحر » الذى كان يرتبها للانقضاض على انجلترا لم تنفذ ، وقد علمنا بعد ذلك أن اختلاف أسلحة الجيش الألمانى كان من بين الأسباب الرئيسية لهذا التأجيل المتوالى بالرغم مما كان فى حوزة ألمانيا وقتئذ من إمكانيات هائلة . . . »

وجاءت معركة بريطانيا ، وهى تلك الغارات الجوية المتلاحقة التى شنها السلاح الألمانى الجوى على بريطانيا ، ولقد بدأت أولى هذه الهجمات الضخمة التى تعتبر بدء معركة بريطانيا فى ١٠ يوليه وقد اتسمت المرحلة الأولى بين ١٠ يوليو ، و ١٨ أغسطس سنة ١٩٤٠ بالعنف والتركيز على القوافل البريطانية فى المانش وعلى الموانىء الجنوبية الواقعة بين دوفر وبلايموث . . أما المرحلة الثانية الواقعة بين ٢٤ أغسطس و ٢٧ سبتمبر فكان هدفها تمهيد الطريق إلى لندن وذلك بتحطيم الأسطول الجوى البريطانى ومنشآته لتأمين الهجمات المتوالية العنيفة على العاصمة وقطع طرق المواصلات من الشواطىء المهددة بالغزو .

وفى يوليو عام ١٩٤١ قرر هتلر تأجيل الغزو مرة أخرى حتى ربيع عام ١٩٤٣ عند ما تكون الإغارة على روسيا قد انتهت !

وكان هذا التأجيل — مرة أخرى — فى صالح انجلترا .

كما كان التأجيل فى الوقت ذاته مهدداً لألمانيا بل لقلب الدائرة عليها ! وإلى شهر نوفمبر كانت انجلترا قد دفعت ثمن كل ما وصلها من أمريكا من الأسلحة وكانت قد باعت ما قيمته ٣٣٥ مليون دولار من السندات والأسهم الأمريكية التى صادرتها من أصحابها فى لندن مقابل الدفع بالجنيه الاسترلينى . كما قامت بدفع ما يزيد على ٥٠٠ مليون دولار نقداً وصار كل ماتبقى لدى إنجلترا ألفى مليون دولار معظمها فى صورة استثمارات غير قابلة للبيع الفورى فى الأسواق .

وهكذا بدت أزمة جديدة .

ولكن هذه الأزمة ما لبثت أن وجد لها الحل الملائم . .

استجاب الرئيس روزفلت إلى نداءات تشرشل ، التى توضح حالة بريطانيا ، وكانت معركة الانتخابات وأمريكا قد انتهت بفوز روزفلت ، وكان روزفلت يبحث عن الوسيلة التى يستطيع أنه يتخذها لمعاونة انجلترا دون معارضة من الكونجرس . واستند روزفلت إلى قانون قديم صدر عام ١٨٩٢ يبيح لوزير الحربية الحرية فى تأجير ممتلكات الجيش ما دام يرى فى ذلك مصلحة عامة على شريطة ألا يكون الجيش محتاجاً لهذه المعدات لمدة خمس سنوات . . وهكذا لاحت فكرة « التأجير » فى ذهن روزفلت

لتحقيق ما تحتاجه انجلترا عوضا عن تقديم قروض غير محدودة ، قد تزداد على نحو لا يمكن سداده وانتقلت الفكرة إلى حيز التنفيذ بصدور قانون الإعارة والتأجير بعد أن وافق الكونجرس عليه .

* * *

وكانت الحرب قد امتدت إلى الصحراء بعد أن أعلنت ايطاليا الحرب فى ١٠ يونيه عام ١٩٤٠ وكانت القوات الإيطالية فى شمال افريقيا تربو على ربع مليون جندى بينما كانت وحدات الجيش البريطانى لا تزيد على ٥٠ ألف جندى فكان ميزان القوى فى صالح إيطاليا .

وبدأت القوات الإيطالية هجومها على الحدود المصرية فى ١٣ أغسطس وكان الجيش الإيطالى يتكون من ست فرق من المشاة وثمانية أفواج من الدبابات وكانت الجيوش البريطانية تتكون من ثلاث فرق للمشاة وفوج من الدبابات وثلاث بطاريات ومجموعتين من السيارات المصفحة ولكن الهجوم الايطالى توقف عند سيدى برانى .

واتجه موسولينى إلى اليونان . . . وكان هجوم إيطاليا على اليونان صـــدمة هائلة لموسولينى ، إذ قاومت اليونان ، الجيش الإيطالى مقاومة باسلة .

وكان تشرشل يبذل كل ما فى طاقته لتجديد القتال فى الصحراء وانتهاز الفرصة لسحق الجيش الإيطالى الذى كان لا يزال عند سيدى برانى .

ومن الغريب أن الجيش الإيطالى الذى كان موسولينى يتفاخر بقوته لم يلبث أن انهار وكاد يقع كله فى الأسر حتى لقد قيل بأن عدد الأسرى لا يمكن إحصاؤه . . . وكان عددهم يملأ خمسة أفدنة من الضباط ومائتى فدان من الجنود ! » .

وفى مستهل عام ١٩٤١ كانت الجيوش الإيطالية فى الصحراء الافريقية قد تداعت وبلغ عدد الأسرى ١١٥ ألف أسير عدا عتاده الحربى ومن بينه ٧٠٠ مدفع .

* * *

كانت خسائر انجلترا فى سفنها البحرية فادحة بما لا يقاس وكان تشرشل يقول « إن الشىء الذى أثار مخاوفى حقاً هو تهديد الغواصات الألمانية فقد كنت على يقين من فشل الغزو ، وقد مهدت لاعتقادى هذا نتائج المعركة الجوية إذ أحرزنا النصر الجوى ، وبذلك صار الغزو شيئاً طيباً بالنسبة لنا ، ونحن الآن نواجه خطراً هائلا إذ أن شريان حياتنا حتى فى غمار المحيطات وخاصة فى مداخل جزرنا مهدد باستمرار ، وكان القلق ينتابنى أكثر مما لقيته وأشد حين خضنا غمار المعركة الجوية . . . » .

كذلك كان القلق يسود الأميرالية البريطانية .

أما الألمان فانهم بعد أن استطاعوا السيطرة على سواحل فرنسا من دنكرك إلى بوردو لم ينفقوا وقتهم هباء ، بل سارعوا بإقامة قواعد لغواصاتهم ولطائراتهم المقاتلة على مدى الساحل المحتل . وفوق خطر الغواصات كانت الطائرات الألمانية بعيدة المدى تبحث فى أرجاء المحيط لافتراس السفن الإنجليزية . . . وكذلك كانت الطرادات الألمانية تعمل فى جنوب الأطلنطى فى طريقها إلى المحيط الهندى للغرض ذاته .

ورداً على هذه المحن المتواليـــة أنشأ تشرشل لجنة معركة الاطلنطى لمواجهة كل هذه الأخطار وكان من أهم مسئولياتها العمل بكل الوسائل لغرض الحماية على السفن من كندا إلى بريطانيا . . . وكذلك قام الرئيس روزفلت ـ ولم تكن الولايات المتحدة قد دخلت الحرب بعد ـ بإصدار أمره بعدم السماح للغواصات الألمانية والسفن الأخرى المهاجمة بأن تقترب من الساحل الأمريكى وأن تضمن أمريكا وصول ذخائرها إلى بريطانيا حتى منتصف الطريق . . . واستطاع تشرشل باتصاله المباشر مع روزفلت من إنشاء قاعدة لانجلترا فى ايسلنده كما أباح روزفلت للسفن البريطانية المصابة من أن تقوم بعمليات الإصلاح فى الأحواض الأمريكية .

ومضت أمريكا بعد ذلك ، مع أنها لم تكن قد أعلنت الحرب على ألمانيا فى توسيع مدى مساعداتها لانجلترا .

وفى الوقت الذى أخذت فيه اليونان تقل مقاومتها للغزو بعد أن انبرى هتلر لمعاونة صديقه موسولينى فيها ، كان الحال كذلك فى يوغوسلافيا التى بذلت كل ما فى وسعها من مقاومة ثم ما لبثت أن استسلمت ووصل الألمان إلى بلجراد فى ١٣ أبريل سنة ١٩٤٣ كما استسلمت اليونان فى ٢٤ ابريل .

وواجهت بريطانيا عملية انسحاب جيوشها من اليونان وكانت مأساة أشبه بمأساة دنكرك إذ قدر عدد جنود الحلفاء بنحو ٥٠ ألف جندى .

واتصل تشرشل بالأميرال كنجهام ورتب خطته فقذف بكل الوحدات البحرية الخفيفة لتحمل العبء وخسرت جيوش الحلفاء نحو أحد عشر ألف جندى من بينهم ألوف من أبناء قبرص واليونان ويوغوسلافيا .

وقام تشرشل بتوجيه إذاعة إلى الشعب البريطانى جاء فيها « علينا أن نسيطر على أعصابنا وإلا يستبد بنا الفزع أو الإحساس بوهن العزيمة » .

ثم جاء دور روميل .

وروميل هو القائد الألمانى الذى ألقى عليه هتلر مهمة ملاقاة جيش الصحراء والدخول إلى مصر .

ومن الغريب أن تشرشل — بالرغم من الحرب الضروس التي قامت بين الجيوش الألمانية والإنجليزية في الصحراء وغيرها ، لم يتردد أن يسجل العبارات التالية عن رومل .

« لقد أبدى رومل في الحملة الأفريقية ضروباً رائعاً من البراعة في قيادة التنظيمات وتوجيهها وخصوصاً في أرجاع التجمع على على الفور بعد أية عملية ، والاستمرار في اكتساب النصر والغلبة ، ولقد كان رومل رجلا مغامراً عسكرياً نادراً ، يسيطر بكل براعة على شئون التموين ويستخف بالدفاع ، وكانت القيادة الألمانية قد ألقت له الزمام في بداءة الأمر فذهلت من انتصاراته المتلاحقة ، وما لبثت أن عمدت إلى التقييد من تصرفاته . . ولست أنكر أن ضرباته ألحقت بنا أضرار جسيمة للغاية . . بيد أنني أنني أقر أنه كان جديراً بالتحية التي أعلنتها في مجلس العموم البريطاني في يناير عام ١٩٤٥ ، مع أن جماهير الشعب وجهت إلى لوماً على ذلك ، بل أنني لأحس بالجرأة إذ أقول أننا كنا نواجه قائداً عظيما ، جديراً بكل تقدير ، إذ أنه بالرغم من أنه كان جنديا ألمانياً باسلا ، فقد كان يمقت هتلر وكذلك كل أفعاله حتى لقد كان بين المتآمرين في مؤامرة ١٩٤٤ التي كانت تسعى لإنقاذ ألمانيا من براثن الدكتاتور الأحمق . . وفي سبيل ذلك دفع حياته ثمناً لهذا الإجراء » .

ولقد بدأ رومل هجومه على العقيلة فى ٣١ مارس . . ثم أخذ يتقدم والجيش الثامن يتراجع تحت شدة ضرباته الساحقة .

* * *

وبعث ويفل إلى تشرشل يشرح له حالة الجيش الثامن وافتقاره إلى كثير من العتاد وخاصة الدبابات الثقيلة السريعة . . ولما رأى تشرشل خطورة هذه الحالة ، لم يجد بدأ من أن يتغافل عن كل تردد تبدية الأميرالية من إرسال القوات عبر البحر الأبيض المتوسط — وهذه من سماته الخاصة التى طالما لاحظناها فى سيرة هذا الرجل — فأصدر تشرشل أمره شخصياً لكى يرسل إلى الاسكندرية رأساً قافلة تتضمن ما يحتاج إليه الجنرال ويفل من الدبابات كما قرر أيضاً أن ترسل قافلة من المدرعات إلى مصر ، وأن تتجه البواخر السريعة الحاملة للدبابات طريقها إلى مصر من أقصر طريق من جبل طارق رأساً حتى توفر نحو أربعين يوما إذا ما اتخذت مسارها عن طريق رأس الرجاء الصالح . .

أما رؤساء أركان الحرب فى بريطانيا فكانوا على عكس رأى تشرشل — إذ كان أملهم ضعيفاً أن تستطيع السفن المحملة بالدبابات أن تمضى سالمة فى البحر المتوسط دون أن تتعرض

للخطر بينما لا تستطيع الطائرات البريطانية أن تفرض عليها حمايتها من قواعدها الساحلية .

وكذلك كانت معركة كريت امتحاناً قاسياً ، هذه المعركة التى أبدى فيها سكان تلك الجزيرة ألواناً من الشجاعة بيد أنها لم تلبث أن خرت تحت ضربات الألمان الساحقة وبعد أن كلفت القيادة الألمانية ثمناً غالياً .

سؤال فى وسط المعركة

والآن لابد من وقفة قصيرة فى وسط هذه المعارك .

لقد عنينا أن نبسط صوراً خاطفة سريعة من الهزائم المتلاحقة التى منيت بها بريطانيا وفصولا من صور الحرب العالمية الثانية فى خلال النصف الأول من هذه الحرب ،وليس هذا الكتاب خاصاً بتتبع وقائع الحرب العالمية ، إلا بالقدر المناسب فى التحدث عن سيرة تشرشل ، ولكن كان لا بد أن نقدم هذه الصور ، كما سنقدم فيما بعد صوراً أخرى منها ، لنعطى للقارىء صورة من الموقف الحربى الذى كان تشرشل فى ميدانه ، بل أبرز شخصياته .

والسؤال الذى لابد لنا أن نجيب عليه الآن هو :

كيف استطاع هذا العجوز الداهية ، تشرشل الممثل لآخر حلقة فى الامبراطورية البريطانية ، كيف استطاع أن يحول الهزيمة المؤكدة إلى انتصارات ؟ .

هذا هو السؤال المتشعب .

إن هذا يقتضينا أن نلق أضواءا أكثر على شخصية تشرشل ، وعلى طراز تفكيره وتدبيره ، كما ألقينا بعض الأضواء على

الحالة الحربية أو على أجزاء منها فى النصف الأول من الحرب العالمية الثانية .

لقد كان تشرشل ، ليس مجرد رجل سياسة فحسب ، يعمل فى مكتبه ، بل إن خبرات الماضى الطويل كمراسل حربى ، ومكانة أسرته أمدته بالكثير من الفوائد الجزيلة التى اقتطف ثمراتها فيما بعد ، كان تشرشل يعقد فى بداءة حياته صداقات مع كثيرين ممن بيدهم مقاليد الأمور للإفادة منهم فى الوصول إلى أهدافه كما أوضحنا ذلك عند التحدث عنه فى سنواته الأولى كذلك أفاد من علاقاته بالآخرين أيضاً فى تدبير شئونه خلال الحرب العالمية الثانية .

استطاع تشرشل أن يجتذب « عطف » الولايات المتحدة وتأييدها فى بداية الحرب ، بعد أن كانت ملتزمة جانب الحذر ، بل الحياد تقريباً ، واستطاع بصداقته مع أقطاب الرأسماليين وفى مقدمتهم برنارد باروخ المالى الأمريكى اليهودى ويعتبر هذا اليهودى من أقوى الشخصيات الموجهة — من وراء الستار — لسياسة امريكا أن يحقق غاياته .

وكذلك استغل عداوة اليهود على ألمانيا أو على هتلر فى التوصل إلى تمهيد السبل لزيادة اهتمام الولايات المتحدة بأمر انجلترا التى كانت فى وقت ما ، بعد انهيار فرنسا وفاجعة دنكرك على شفا جرف هار .

ثم لجأ تشرشل إلى أسلوب النداء بالنجدة من أمريكا ، وله بها أكثر من صلة وخاصة أن والدته أمريكية الأصل ، ولم تمانع الولايات المتحدة بأن تشترى انجلترا الأسلحة منها بالرغم من أنها لم تكن قد أعلنت الحرب على ألمانيا ، وكان تشرشل يضرب على وتر حساس بأن كلا الدولتين ينطقان بلغة واحدة هى اللغة الانجليزية وبينهما أعراق نسب .

وجاء فوز روزفلت فى معركة انتخابات الرياسة تحقيقا لآمال تشرشل ، فقد كانت انجلترا تشترى الأسلحة مما لديها من أرصدة الدولارات الأمريكية وبما صادرته من الدولارات من أصحابها فى انجلترا ، ولكن رصيد انجلترا من الدولارات كاد ينفد وحاجتها ماسة إلى الأسلحة الأمريكية بعد أن فقدت فى دنكرك أغلب عتادها الحربى وبعد أن خربت أكثر مصانعها الحربية .

وكان « قانون الإعارة والتأجير » الذى أصدرته الولايات المتحدة ، إنقاذا لانجلترا بل أن بعض النقاد العسكريين يعتبرونه بمثابة إعلان حرب على ألمانيا ، فقد أمدت الولايات المتحدة تشرشل بكل ما كان يحتاجه من أسلحة وعتاد . . . ثم تدرج تشرشل فى التماس النجدة من الولايات المتحدة وهى لا تزال لم تعلن الحرب على ألمانيا ، فاستخدم الموانى الأمريكية لإصلاح السفن البريطانية وبذلك تكون فى مأمن من هجمات الألمان ، وكذلك تمكن من أن

يجعل لانجلترا قواعد فى أرض الولايات المتحدة ليتخذ من هذه القواعد مراكز للوثوب والانقضاض على ألمانيا .

وإلى جانب هذا كله ، مضى تشرشل فى حبك سياسته العسكرية حتى حقق حلماً ذهبياً بإعلان الولايات المتحدة الحرب على المحور بعد .

كذلك مضى فى تجميع شتات أعداء ألمانيا فى صعيد واحد هو ميدان الحرب ، مستعينا بكل الدول التى غزتها ألمانيا .

وكانت غلطة هتلر الكبرى ، من بين سلسلة أخطائه المتعددة، مهاجمته لروسيا ، فألفى تشرشل ضالته المنشودة فى هذه الغلطة العسكرية التى اقترفتها ألمانيا وكانت من الأسباب المباشرة فى هزيمتها .

وتحالف تشرشل مع ستالين . ولقد قال بحق أنه على استعداد للتحالف مع الشيطان فى سبيل إنزال الهزيمة بألمانيا .

وثمة جانب آخر فى حياة هذا السياسى الداهية ، فلقد نشطت المخابرات البريطانية إلى جسم الجيش الألمانى ذاته كما نفذت أيضاً إلى الجيش الإيطالى ، بل حتى جيش روميل فى الصحراء استطاعت مخابرات تشرشل أن تتسلل إليه وفى هذا يقول تشرشل « كانت

مخابراتنا فى ذلك الحين قد نفذت إلى مقر قيادة رومل وتولى عميلنا إرسال أدق الأخبار عما يواجهه رومل من مصاعب شتى فى موقفه المتجمد الغريب، كنا ندرك تماماً الثغرة الوحيدة التى كان يأمل القائد الألمانى فى الإبقاء عليها ، كما وقفنا على الأوامر العنيفة الصارمة والتحذيرات الشديدة التى كانت تصل إلى رومل من القيادة الألمانية العليا ، منذرة إياه بألا تتسرب المكاسب التى أحرزها حتى هذه اللحظة فى انسياقه بالاعتماد على حظه المواتى أكثر مما ينبغى . . . وكنا نبعث إلى ويفل بكافه المعلومات .. » وكذلك يقول تشرشل عن نشاط مخابراته أيضاً .

« حصلنا على «تقرير المعركة» الذى أعده الفيلق الجوى الألمانى الحادى عشر الذى كانت الفرقة السابعة المحمولة بالجو بعضاً منه ، وعندما نوجه نقدنا القاسى إلى أنفسنا وإلى بعض خططنا فإنه يكون من المفيد أن نضيف إلى ذلك وجهة نظر الفريق المضاد . . . ثم كتب الألمان فى تقريرهم الذى حصلنا عليه ما يلى « كانت قوات البر البريطانية فى كريت ثلاثة أضعاف ما دار فى احتمالنا ، وقد أعدوا فى غاية المهارة والدقة عمليات الدفاع فى الجزيرة ، وجهزوا المنطقة بكل الطرق المستطاعة . . وأتقنت عمليات التعمية بمهارة فائقة ، ونتيجة لافتقارنا إلى المعلومات الصائبة عن مدى قوة العدو ونوع موقعه ، عرضنا هجوم الفيلق الجوى الحادى عشر للخطر وكبدناه أضراراً جسيمة ظهرت نتائجها . . »

ونضيف إلى هذا تلك المرونة التى اتصف بها تشرشل فى تغيير القواد فى الوقت الذى يرى فيه أن القائد قد استنفذ كل ما فى جبعته من جهد ، دون مبالاة بمركزه أو مكانته فقد حدث أن اختلف ويفل مع تشرشل بشأن امتداد القتال فى العراق وأنه يعرض الدفاع عن فلسطين للخطر ، فما كان من تشرشل إلا أن أصر على رأيه ثم رأى بعدئذ أن يعفيه من أعباء وظيفته دون أن يجد فى ذلك أية غضاضة وبعد أن قرر ذلك فى الثلث الأخير من شهر يونية عام ١٩٤١ « لقد قر شعورنا فى لندن بأن ويفل أصبح شخصية شائكة ومن الصائب أن يقال أننا ركبنا الجواد حتى استنفذ قواه . . . » .

ومن بين الجوانب الهامة فى التركيب السياسى لشخصية تشرشل اختياره لشخصيات الذين يوفدهم كسفراء إلى البلاد الأخرى، كما فعل ذلك عندما اختار هاليفاكس سفيراً لانجلترا فى الولايات المتحدة ، وعندما اختار السير ستافورد كريبس سفيرا لانجلترا فى روسيا السوفيتية وكان للرجل ميولا يسارية تنسجم فى روحها مع المهمة الملقاة على عاتقه كما أن فيها من المراعاة لمشاعر السوفييت ما يسهل عليه الكثير فى اجتياز العقبات . فلما قدم رينتروب وزير خارجية ألمانيا إعلان الحرب الرسمى إلى سفير روسيا فى برلين فى ٢٢ يونية عام ١٩٤١ ، كانت انجلترا قد حذرت روسيا مراراً

بنوايا ألمانيا ، دون أية فائدة فإن المسئولين فى موسكو كانوا يؤكدون أن هذه الترهات ليست سوى مناورات نفسية طائشة يشنها أعداء الاتحاد السوفيتى وألمانيا هادفين إلى نشر الحرب واندلاعها .

وعندئذ تهلل تشرشل إذ تحققت أقصى أمانيه ولا نغفل فى هذا المجال أيضاً ، إلى أن تشرشل ، استطاع أن يجتذب التأييد والنفوذ الصهيونى .

الدور الختامى فى الحرب العالمية الثانية

توالت هزائم الجيوش الألمانية ، وكان أبرزها تلك الهزيمة التى لحقت بجيوش رومل . . . وكان الجيش الثامن قد قطع مسافة هائلة وكان رومل قد تمكن من سحب قواته المحطمة من العلمين ، وظل الضغط مستمراً على قوات مؤخرته إلا أن المحاولة التى بذلتها قوات الجيش الثامن للوصول قبله إلى الجنوب من بنغازى أصيبت بالفشل ، وبهذا استطاع رومل أن يستريح بعض الوقت فى العقيلة فى حين اضطر مونتجومرى بعد تقدمه الطويل إلى مواجهة نفس المصاعب فى النقل والتموين التى عانى منها أسلافه ، ولكن ما لبث رومل أن انسحب بعد الضغط المتوالى عليه . . .

فى هذا الحين قرر تشرشل أن يجتمع بالرئيس الأمريكى روزفلت ومع غيره من الأقطاب لبحث موضوع عبر القنـــاة عام ١٩٤٣ الرامية إلى مهاجمة ألمانيـا فى الأراضى التى تحتلها فى أوروبا ثم الوثوب عليها .

وكان مكان الاجتماع هو « الدار البيضاء » وفى يوم ١٢ يناير عام ١٩٤٣ توجه تشرشل إلى الدار البيضاء ، وقد حدث أن المدفأة التى وضعت فى الطائرة التى كانت تقله كادت تحرقه وكانت هذه

المدفأة الغازية قد أعدت لتوليد الحرارة ، وكانت قوتها شديدة ،
فأفاق تشرشل من النوم فى الساعة الثانية صباحاً ، وكانت الطائرة
فوق المحيط الاطلنطى على بعد خمسمائة ميل من أقرب نقطة برية وأحس
تشرشل بالحرارة تحرق أصابع قدميه وخيل إليه أنها ستبلغ حد
الاحتراق بعد قليل وتشعل النار فى الفراش ، فأيقظ مرافقه الذى
كان نائما فى مقعده ووجه نظره إلى الجهة المنبعثة منها الحرارة
وهبط تشرشل ومرافقه إلى المكان الذى تحفظ فيه القنابل فى
الطائرات إذ أن الطائرة كانت من قاذفات القنابل ، فألفيا رجلين
يعملان فى نشاط واهتمام للإبقاء على جهاز الحرارة الغازى مشتعلا ،
فرأى تشرشل أن هذه العملية غاية فى الخطورة من كافة نواحيها ،
لما يمكن أن يسببه الجو الغازى بسبب اشتداد الحرارة من احتمال
الانفجار ، وفضل تشرشل حالة الصقيع على الاحتراق وأمر
باطفاء جهاز التدفئة ، وعاد إلى فراشه وهو يرتجف من البرد
الثلجى إذ كانت الطائرة على ارتفاع ثمانية آلاف قدم فى الجو .

وفى يوم ١٤ يناير وصل روزفلت إلى الدار البيضاء أيضاً ،
وكان لقاؤهما حاراً ، كما وصل الجنرال ايزنهاور فى اليوم التالى ،
وكذلك وصل إلى مكان الاجتماع بعض القادة العسكريين ، وعمد
تشرشل إلى ضرورة حضور الجنرال ديجول الذى كان يمثل
«الفرنسيين الأحرار» ولكن ديجول أبدى فى بداءة الأمر تمنعاً

عن الحضور ما دام الجنرال جيرو سيحضر الاجتماع ، وبالرغم من أن روزفلت أبرق إليه ليحضر فإنه أصر على عدم الحضور ، وعندئذ اشتد الضغط على ديجول بأنه إذا لم يحضر فإن الحلفاء سيتخلون عنه ، وأخيراً وصل فى يوم ٢٢ يناير إلى الدار البيضاء ، وتقابل تشرشل مع ديجول فى جو عاصف ثم استطاع أن يقنعه بالتحدث إلى جيرو .

وظل مؤتمر الدار البيضاء منعقداً قرابة أسبوعين تدارس الموقف فيها تشرشل وروزفلت وبقية الأعضاء وانتهى المؤتمر بمشروع عن « إدارة دفة الحرب فى عام ١٩٤٣ » وخلاصة تقرير هذا المؤتمر هى :

تتكون الخطوط العريضة الرئيسية للهجوم على النحو الآتى فى البحر الأبيض المتوسط .

(ا) أن يستهدف من احتلال صقلية ما يلى :

١ — تأمين سلامة خطوط المواصلات فى البحر الأبيض المتوسط .

٢ — تخفيف الضغط الألمانى عن الجبهة الروسية .

٣ — تشديد الضغط على ايطاليا .

(ب) بذل الجهود الممكنه لدى تركيا .

استمرار العمليات فى المحيط الهادى والشرق الأقصى بقصد الضغط على اليابان على أن يبدأ الهجوم عليها فور هزيمة ألمانيا .

وبعد انتهاء هذا المؤتمر ، مضى تشرشل مع روزفلت لزيارة مدينة مراكش التى كان تشرشل يقول عنها بأنها باريس الصحراء إذ تؤمها القوافل من كافة أرجاء افريقيا الوسطى منذ أجيال طويلة لتدفع الجزيات الباهظة لقبائل الجبال قبل أن تصل إليها وأمضى تشرشل ليلة فى المدينة مع الرئيس روزفلت فى منزل نائب القنصل الامريكى فى المدينة ، ويصف تشرشل تلك الليلة بقوله « أقام لنا المستر بيندار — نائب القنصل — وليمة عشاء كبيرة وصعدت مع الرئيس الأمريكى برج المنزل ، بعد أن حملوه فى مقعده ، وجلسنا نستمتع برؤية مغيب الشمس وراء ثلوج جبال الأطلس ، ومعنا خمسة عشر أو ستة عشر شخصاً وهم الذين حضروا معا مأدبة العشاء وكان يعمنا السرور والبهجة وأنشدنا جميعاً أعذب الأناشيد ، وغنيت بمفردى ، فى حين اشترك الرئيس مع فرقة الكورس ولما أراد الرئيس أن يغنى أغنية على انفراد منعه أحد رجال حاشيته » .

وقام تشرشل بعد ذلك بمقابلة الرئيس التركى عصمت اينونو فى مدينة اطنة بعد أن طار تشرشل إليها وفى تلك المقابلة تم الاتفاق بينهما على إقامة ارتباط سلمى وودى بين تركيا والولايات

المتحدة وانجلترا ولما أبدى عصمت اينونو خشيته من روسيا فى المستقبل أجابه تشرشل بأن منظمة عالمية ستقوم وستكون مسئولة عن حفظ السلم وستكون أقوى من عصبة الأمم ، فقال له اينونو أنه يتطلع إلى شيء أكثر واقعية، فان أوربا ملأى بالسلاف والشيوعيين ومن المتوقع أن تتحول جميع الدول المهزومة إلى البلشفية والسلافية إذا هزمت ألمانيا ، فأجابه تشرشل بأن الأمور لا تسير إلى الأسوأ وبعث الطمأنينة إلى الرئيس التركى الذى أثبتت الحوادث بعد الحرب أنه كان أبعد نظراً من تشرشل.

وبعد اجتماع تشرشل مع عصمت اينونو طار إلى القاهرة ، بعد وقفة قصيرة فى قبرص ثم اتجه إلى طرابلس حيث كان الجيش الثامن قد احتلها .

وكانت القوات الألمانية تتوالى هزائمها فى أغلب الميادين بعد أن تكاثرت عليها القوى المعادية .

وتوجه تشرشل بعدذلك إلى واشنطن لتنسيق العمليات الحربية التالية بينه وبين الولايات المتحدة ومنها احتلال صقلية وغزو إيطاليا ولم تلبث عملية غزو صقلية أن تمت وفى يوم ١٧ يوليه عام ١٩٤٣ خرج آخر جندى ألمانى من جزيرة صقلية وبعد ذلك بيومين بدأت قاذفات القنابل الأمريكية غارة ضخمة على مطار روما

وأرصفة السكك الحديدية فيها فأوقعت أضراراً فادحة فيها وكان أثرها النفسى مؤلماً وصار انهيار إيطاليا أمراً محتملا .. وكان ملك إيطاليا يحاول إقصاء موسولينى ، وحاول اعتقاله ولكن الأخير غادر روما يوم ١٩ يوليو عام ١٩٤٣ بطريق الجو لمقابلة هتلر على مقربة من ريمينى ، فمضى هتلر يتحدث عن وجوب بذل مجهودات أضخم وذكر أن السلاح السرى الجديد سيصبح جاهزاً للاستعمال ضد بريطانيا فى الشتاء القادم . . . » .

ولكن هذا الأمر لم يطل ، إذ تخلى المجلس الفاشستى عن موسولينى وكان الكونت شيانو صهر موسولينى من بين الذين تخلوا عنه وانضموا إلى الملك وخذل موسولينى بأغلبية ١٩ صوتاً ضد سبعة أصوات معه . . . ثم طرد موسولينى من منصبه وقام ملك إيطاليا بتأليف حكومة جديدة برياسة بادوليو وتضم القادة العسكريين وبعض كبار الموظفين وبعد ذلك بيومين نقل موسولينى بأمر بادليو إلى السجن فى جزيرة بونزا .

وتلا ذلك مؤتمر كويبك الذى حضره روزفلت وتشرشل وطائفة من القواد تمهيداً لعمليات الانقضاض على ألمانيا ، وغزو إيطاليا . التى لم تلبث أن وقعت وثيقة الاستسلام فى يوم ٣ سبتمبر عام ١٩٤٣ بعد معارك مريرة بين القوات الألمانية والقوات الأمريكية وقد

أخذ الإنجليز كما هي العادة دائماً وفى الوقت المناسب — يحاربون بدماء غيرهم .

وقبل ذلك بشهور أو على وجه التحديد فى ربيع عام١٩٤٣، كانت الحرب فى الجبهة الشرقية قد بلغت نقطة التحول ، إذ كانت الجيوش الروسية — حتى قبل معركة ستالينجراد نفسها — قد دفعت بالألمان إلى التقهقر على طول الجهة وتم سحب الجيش الألمانى بمهارة ونجاح من القوقاز ولكن الروس واصلوا الضغط وأخرجوا الألمان من حوض نهر الدون إلى ما وراء حوض الدونتز ، وهو خط البداية فى الهجوم الذى شرع فيه هتلر صيف عام ١٩٤٢ كذلك خسر الألمان الأراضى التى كانوا قد استولوا عليها فى الشمال وكذلك تحطم الحصار المضروب على لننجراد .

بداية النهاية

بعد أن عاد تشرشل إلى انجلترا من مؤتمر كويبك ، فكر في اجتماع يضم رؤساء الدول الحليفة ، بالنسبة لأهمية العملية التالية وهي الغزو ، ودخول أوروبا عام ١٩٤٤ وكان تشرشل قد اتفق مع روزفلت على اختيار الجنرال مارشال الأمريكي لتولى هذه القيادة ! .

ووصل تشرشل بحراً إلى الاسكندرية في ٢١ نوفمبر عام ١٩٤٣ ومنها طار إلى القاهرة وأقام في منزل بجوار الأهرام حيث وجد الجنرال شيانج كاى شك وقرينته في انتظاره ، حيث كانا قد وصلا قبله وفي اليوم التالي وصل روزفلت واجتمع المؤتمرون في فندق مينا هاوس لبحث عملية « السيد الأكبر » الرامية إلى تحقيق هذا الهجوم على أوروبا .

وكان تشرشل على موعد بعد ذلك مع ستالين في طهران ، فتوجه لملاقاته مع روزفلت والمستشارين وبدء الاجتماع الأول بينهم في دار السفارة السوفيتية بطهران في يوم ٢٨ نوفمبر .

وبعد انتهاء الاجتماع والعشاء انتحى تشرشل بستالين جانباً ، واقترح على الأخير أن يتحدثا قليلا عما سيقع بعد أن يكسب الحلفاء الحرب ! فأجاب ستالين : دعنا ندرس أولا أسوأ ما يمكن.

أن يحدث ، إذ خيل لستالين أن الفرصة ستتاح لألمانيا لـكى تعود إلى ما كانت عليه ، وستتمكن من شن حرب جديدة فى وقت قصير، وكان ستالين يخشى بعث الروح الوطنية الألمانية ولمـــا سأله تشرشل عن الوقت الذى يقدره لذلك أجاب ستالين « فى بحر ١٥ أو عشرين عاماً » وكان من رأى ستالين أن يتوافر الحلفاء على دراسة القيود الواجب فرضها على طاقة ألمانيا الصناعية ، إذ أن الألمان شعب قدير دائب على العمل ، كثير الموارد ، وفى طاقته أن يجدد قوته فى سهولة وسرعة فائقة فقال له تشرشل أن من الواجب فرض إجراءات الإشراف عليها وحرمان ألمـانيا من الطيران المدنى والحربى . . فمضى ستالين يتساءل : وهل يمكن أن تمنع صانعى الساعات ومعامل الأثاث من صنع أجزاء القنابل ؟ فأجابه تشرشل من الواجب أن نؤمن سلامة العالم لخمسين سنة قادمة عن طريق نزع سلاح ألمانيا ومنعها من التسلح والإشراف على كافة المصانع بها وحظر الطيران عليها كما أنه يجب أن تستمر صداقة أمريكا وروسيا وبريطانيا وانتهى ستالين إلى القول ، بأن كل ما قاله تشرشل مفيد ولـكنه غير كاف .

وانتهى مؤتمر طهران بعد محادثات طويلة وشاقة فى أوائل شهر ديسمبر وتقرر أن يبدأ الغزو عبر القناة أى عملية السيد الأكبر فى شهر مايو عام ١٩٤٤ ولابد هنا أن نقتطف بعض ما جاء على

لسان تشرشل عن هذه الفترة حتى يتبين لنا أن صداقة أولئك الحلفاء كانت صداقة مصلحة أكثر منها صداقة قائمة على أسس ، إذ أن تشرشل الذى نادى من قبل بأنه سيتحالف مع الشيطان فى سبيل هزيمة ألمانيا ، لم يلبث أن بدأت شكوكه تتزايد فى روسيا السوفيتية يوماً بعد يوم .

« أصبحت النواحى السياسية أقرب إلى الخيال وكان من الواضح أنها تعتمد على نتائج المعارك العظيمة التى كان من المقرر أن تدور وعلى أوضاع كل من الحلفاء بعد تحقيق النصر ، ولم يكن من المناسب فى طهران بالنسبة للديموقراطيات الغربية أن تقيم خططها على أسس من الشكوك فى موقف روسيا ساعة الانتصار ، وعند زوال جميع الأخطار . . ولما كان ستالين قد وعد بدخول الحرب ضد اليابان فور الانتهاء من هزيمة هتلر . وكان أمل الغد يتركز فى الإسراع بنهاية الحرب ، فقد تقرر إقامة جهاز عالمى يحول دون نشوب حرب أخرى ويقوم على أساس القوة المشتركة للدول العظمى الثلاث » .

وما أن انتهت الحرب حتى وقعت تطورات هائلة فياضة بالكوارث ، فالحدود البولندية لا توجد إلا فى عالم الخيال . . وها هى بولندا قد خرت ساجدة مرتعدة الأوصال فى قبضة الشيوعية السوفيتية وقد قسمت ألمانيا حقاً تقسيماً مخيفاً . حيث قسمت إلى

مناطق محتلة عسكرياً ، مما لا يسع الإنسان إلا القول بأن هذه المأساة لا يمكنها أن تستمر » .

وهذا الاعتراف الحرفى الذى جاء على لسان تشرشل عن الأحداث التى تلت الحرب ، يوضح لنا جانباً من الحصافة السياسية لهذا الرجل ، فإنه فى سبيل الغاية الأساسية ، أو بمعنى آخر فى سبيل إنقاذ انجلترا تحالف مع كل القوى لمحاربة هتلر دون أن يتطلع إلى عواقب هذا التحالف ، كأن أولئك الحلفاء سيلتزمون حتما بالسير فى فلكه أو فلك انجلترا وفى مجالاتها ،دون مراعاة لصوالحهم الشخصية ، أو مصالح دولهم وأمنها ، فإذا ما تطلعت تلك الدول إلى غير ذلك ،اعتبر هذا خرقاً للاتفاقات التى تمت بينهم، والحرب أولا وأخيراً خدعة ، وكان لابد له أن يفطن لذلك . وكان لابد له أن يدرك بأن المصالح التى تجمع الأشخاص أو الدول هى ذاتها التى تفرقهم كما حدث ذلك فعلا فى السنوات التالية كما سنرى ذلك.

وقام تشرشل بعد ذلك بعقد عدة اجتماعات أخرى لتنسيق العمليات الحربية .

وبدأت عملية الغزو أو عملية السيد الأكبر ، فى يوم ٦ يونية عام ١٩٤٤ وفى يوم ١٩ يونيو عقد هتلر مؤتمراً على مقربة من سواسون شهده رونشتادت ورومل وبين له القائدان وجوب

سحب الجيش السابع الألمانى بانتظام قبل أن يتعرض للدمار إلى نهر السين حيث يستطيع أن يخوض بالاشتراك مع الجيش الخامس عشر معركة حاسمة ومتحركة ولكن هتلر لم يذعن لرأيهما وأصر كما سبق أن أصر فى روسيا وإيطاليا على وجوب القتال عن كل شبر من الأرض وكان الأسطول الذى اجتاز المانش يتكون من ٦٠٠ بارجة و ٤٠٠ سفينة غير آلاف من السفن الصغيرة والقوارب وبدأ إنزال الجنود إلى شواطىء نورمانديا فى عدة نقط .

وبعد بدء هجوم الحلفاء بستة أيام أمكن إنزال ٣٢٦ ألف جندى و ١٠٤ ألف طن من العتاد الحربى و ٥٥ ألف سيارة إلى الشواطىء الفرنسية وفى يوم ٣٠ أغسطس عام ١٩٤٤ عبرت قوات الحلفاء نهر السين فى عدة جبهات وخسر الطرفان فى المعارك الضارية التى نشبت بينهما عشرات الألوف من القتلى والجرحى والأسرى .

وبينما كانت انجلترا وأمريكا فى واد ، كانت روسيا السوفيتية فى واد آخر من المعركة ، فقد كانت لها سياستها الخاصة بها تجاه الدول التى وقعت فريسة الغزو الألمانى ، والتى رأت أن تنضم إلى المجموعة الشيوعية ، كرومانيا وفنلندا وبولندا وغيرها ، وكانت بولندا قد قاتلت الألمان بشجاعة منقطعة النظير وصمدت وارسو أكثر من ٦٠ يوماً ضد الألمان وسقط فى ميدان المعركة لتحرير

بولندا أكثر من ١٥ ألفاً من ٤٠ ألفاً من الرجال والنساء كانوا يؤلفون جيش المقاومة السرية وأصيب أكثر من ٢٠٠ ألف من سكان وارسو كما لقى أكثر من ١٠ آلاف جندى ألمانى حتفهم و٧ آلاف جندى ألمانى مفقود و ٩ آلاف جريح .

وعندما دخل الروس المدينة لم يجدوا شيئا غير الشوارع المخربة والجثث التى لم تدفن . .

* * *

كانت الحرب لاتزال تدور رحاها فى كثير من الميادين شرقاً وغرباً ، ولكن النتيجة النهائية بدت واضحة . فإن تكاثر الدول المعادية هتلر ، التى استطاع تشرشل أن يجمع أشتاتها بكل الوسائل الماهرة التى أتقنها ، ودخول الولايات المتحدة الحرب بعد أن قامت اليابان بغارتها الرهيبة المفاجئة على ميناء بيرل هاربر ، وانقضاض الدول التى كانت الجيوش الألمانية تحتلها . . كل هذه العوامل وغيرها جعلت النهاية المحتمة للحرب بادية ظاهرة . . وكانت المسألة قضية وقت فحسب ، ويصف تشرشل هذه الفترة بقوله : كان من الطبيعى أن تنمو أطماع الروس بعد أن رفعت الشيوعية رأسها مزمجرة ، لذلك أحسست بضرورة الاجتماع شخصياً مع ستالين وأن أستغل العلاقات الطيبة التى تربطنا بالسوفيت للتفاهم

معهم على الحلول المناسبة للمشكلات الجديدة التي بدت واضحة بين الشرق والغرب ، وخاصة مصير بولندا التي دخلت انجلترا الحرب بسببها ، وكذلك الحال بالنسبة لليونان ومصيرها الذي يؤثر علينا تأثيراً واضحاً ، وكانت الحكومتان البولندية واليونانية قد لجأتا إلى لندن وكنا نشعر بالمسئولية لإعادتهما إلى بلاديهما ، وكذلك كانت الولايات المتحدة تشاركنا المخاوف وإن لم تكن قد أدركت قوة النفوذ الشيوعي الذي تسرب قبل زحف الجيوش الروسية القوية ثم مضى في ركابها . وبالإضافة إلى هذه القضايا الخطيرة التي أثرت تأثيراً بالغاً في الشعوب الأوربية فإن مشكلات التنظيم العالمي أخذت تتبلور أمامنا ، وكنا قد عقدنا من قبل مؤتمراً طويلا في « دومبارتون أوكس » بالقرب من واشنطون ، بين شهري أغسطس وأكتوبر ، حيث وضعت الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتي والصين المشروع الذي صار الآن معروفاً لحفظ سلام العالم وأمنه .

وقد كشفت المناقشات الدائرة بين هذه الأطراف عن وجود خلافات كثيرة بين الدول الكبرى الثلاث لأن الوفد السوفيتي لم يكن راغباً في الاشتراك في منظمة دولية تتغلب فيها أصوات مجموعة من الدول الصغرى على صوته . . .

وتوجه تشرشل إلى موسكو لتسوية الموقف الناجم عن ظهور

أطماع روسيا فى البلقان و بولندا وغيرها ، وفى أثناء اجتماع موسكو كان الوفد البولندى ليسوا سوى جماعة من الشيوعيين إذ صرح رئيس اللجنة البولندية بقوله : « إننا نطالب باسم بولندا أن نكون جزءاً من روسيا ! » بينما كان البولنديون فى لندن ينظرون نظرة مغايرة وأن يوضع خط للحدود بين بولندا وروسيا « خط كرزون » .

ومنيت المحادثات بشأن بولندا بالفشل ، ومن الغريب أن انطباع تشرشل عن ستالين كان حسناً بعد ذلك الاجتماع إذ بدا له أن حديثه مع ستالين كان يتسم بالود والانطلاق ، مما جعل تشرشل يسجل بأن ستالين لم يكن الحاكم المطلق فى بلاده حتى لقد قال تشرشل لزملائه « إن هناك يداً خفية تلعب وراء ستالين » .

* * *

كان يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٤ هو يوم الهدنة فى فرنسا ، واتفق تشرشل على زيارة ، باريس فى هذا اليوم ، وقد وصلت إلى تشرشل تقارير من المخابرات البريطانية أن المتعاونين مع الألمان سيقومون باغتياله عند قدومه ، فاتخذت احتياطات ضخمة لحمايته . و هبط تشرشل يوم ١٠ نوفمبر فى مطار أورلى حيث كان ديجول فى استقباله ، ثم ركب سيارة مجتازاً ضواحى باريس حتى

وصل الركب إلى « الكى دورسيه » حيث حل تشرشل وقرينته وابنته مارى ضيوفاً على فرنسا .

وكانت المعارك الحربية لاتزال قائمة مع ألمانيا فى جبهات أخرى بالرغم من تحرير باريس ، وكانت القوات الألمانية لاتزال تقاتل ببسالة منقطعة النظير ، وقد قام تشرشل فى أثناء وجوده بباريس بزيارة عدة مواقع من جبهة الحرب .

. . وفى الوقت ذاته كانت الحالة فى اليونان تتفاقم من الخطر الشيوعى فى اليونان ، وكانت الحرب الأهلية قد بدأت بين اليونانيين أنفسهم وكان الجيش البريطانى الموجود فى اليونان هدفاً آخر للشيوعيين اليونانيين كما أخذت الحملات الشيوعية تشتد على بريطانيا وعلى تشرشل ذاته فى اليونان .

بل لقد اشتدت الحملات على تشرشل فى مجلس العموم البريطانى ذاته وكادت حكومته تنهار بسبب اشتداد الحملة عليه فى مجلس العموم البريطانى ، وكانت القوات البريطانية تقاتل بشدة فى قلب مدينة أثينا وقد حوصرت وتفوق عليها العدو عدوا ، وكانت تشتبك فى قتال من بيت إلى بيت مع عدو يرتدى أربعة أخماس أفراده الملابس المدنية . . وكان باباندريو رئيس الوزراء اليونانى وبقية وزرائه قد فقدوا كل سلطة كما رفض ملك اليونان الاقتراح بإقامة مجلس وصاية يرأسه رئيس الأساقفة ، فقرر تشرشل أن

يذهب بنفسه إلى أثينا فى ٢٤ ديسمبر عام ١٩٤٤ ليتعرف على رئيس الأساقفة الذى تتوقف على شخصيته الشىء الكثير ، واستقبل تشرشل رئيس الأساقفة على ظهر الطراد أجاكس الذى كان يقله ، ومضى الرجل يتحدث بمرارة عن فظائع جيش التحرير « ايلاس » وعلى اليد التى تلعب وراءه كما تبين لتشرشل مخاوف الأسقف من الشيوعيين وذكر الأسقف أنه أصدر منشوراً بحرمان رجال جيش التحرير للفظائع التى يرتكبوها وعقد بعد ذلك مؤتمراً برياسة رئيس الأساقفة وجلس تشرشل على يمينه وانتهى المؤتمر بأن يقبل جيش التحرير الهدنة وتطهير منطقة أثينا من قواته ووعد تشرشل بأن القوات البريطانية ستجلو حالما يتم تأليف الجيش اليونانى الوطنى وعاد تشرشل إلى لندن حيث قابل ملك اليونان الذى كان لا يزال موجوداً بها ووافق الملك فى نهاية الاجتماع على ألا يعود إلى اليونان إلا إذا دعى للعودة بإرادة حرة ونزيهة كما وافق على تعيين رئيس الأساقفة وصياً على العرش وهكذا تحررت اليونان من الشيوعية . . . ويعلق تشرشل على ذلك بقوله « لقد رأيت بوضوح أن الشيوعية ستكون الخطر الذى يهدد الحضارة . . والتى يجب أن نواجهها بعد هزيمة النازية والفاشية » .

* * *

لم تحل أوائل عام ١٩٤٤ أو على وجه التحديد لم تحل نهاية شهر يناير من تلك السنة حتى كانت جيوش هتلر قد سحبت داخل ألمانيا ، إلا بعض فلول من الجيش الألمانى فى المجر شمال ايطاليا ، ولكن الوضع السياسى فى شرق أوروبا ، كان على غير مايشتهى تشرشل ، فإن رومانيا وبلغاريا قد صارت فى قبضة الروس ، وكانت المجر ويوغسلافيا تفور بالمعارك الدامية . . أما بولندا فانها على الرغم من أنها تحررت من الألمان فقد احتلتها روسيا مع أن الاتفاق غير الرسمى والمؤقت الذى عقده تشرشل مع ستالين فى خلال زيارته لموسكو لم يكن المقصود به أن تتحكم روسيا فى هذه المناطق الكبيرة بعد هزيمة ألمانيا !

وكانت الأسئلة التى تردد فى ذهن تشرشل : ما هو وضع أوروبا بعد الحرب وكيانها كله يتطلب ضرورة إعادة النظر فيها حتما ؟ وكذلك ما هى الطريقة التى ستتبع فى معاملة الألمان بعد هزيمتهم وما هى المساعدة التى سيقدمها الاتحاد السوفيتى فى المرحلة النهائية لهزيمة اليابان ؟ وما هى التنظيمات التى تستطيع دول الحلفاء الكبرى أن تقدمها لسلام العالم ولحسن تنظيمه ؟ . .

مؤتمر يالتا

ونظراً إلى أن محادثات دومبارتن أوكس كانت قد كشفت عن وجود بعض الخلافات ، وكذلك محادثات بولندا ، مع أن تشرشل بذل كل ما فى وسعه خلال زيارته لموسكو فى نوفمبر عام ١٩٤٤ لتذليل العقبات إلا أن روسيا — بالرغم من الاتصالات غير المجدية التى تمت كذلك بين روزفلت وستالين — اعترفت بالجناح البولندى الموالى للشيوعية والمسماة لجنة لوبلين باعتبار أنها حكومة بولندا المؤقتة .

ويحسن هنا أن نقتطف ما جاء على لسان تشرشل عن هذه اللحظات الحاسمة « لما كان الرئيس روزفلت مقتنعاً كل الاقتناع بأهمية انعقاد مؤتمر آخر يضم الثلاثة الكبار ، وبعد إلحاف شديد من ناحيتى ، وافق روزفلت على أن نعقد أنا وهو مؤتمراً تمهيدياً فى مالطة ، وكان الرئيس يعلم المخاوف التى تلازمنى بشأن المستقبل فغادرت انجلترا فى يوم ٢٩ يناير عام ١٩٤٥ على طائرة ومعى ابنتى سارة وعدد من الموظفين الرسميين ووصلنا إلى مالطة يوم ٣٠ يناير عام ١٩٤٥ وكذلك وصلت السفينة الحربية الأمريكية « كوينسى » يوم ٢ فبراير عام ١٩٤٥ إلى الخليج وعلى ظهرها روزفلت وعقدنا

اجتماعنا الأول فى هذه السفينة واستعرضنا تقرير هيئة أركان الحرب المشتركة والمباحثات العسكرية التى كانت دائرة فى مالطة منذ ثلاثة أيام ، كما انتهزنا الفرصة لاستعراض الموقف العسكرى كله والحملات المقبلة فى جنوب شرقى آسيا والمحيط الهادى والوضع فى البحر الأبيض المتوسط . . وأسفرت المباحثات عن نتائج هامة بشأن المسائل العسكرية واتفقنا على وجهات نظرنا قبل الشروع فى المحادثات مع الروس التى ستبدأ بعد ذهابنا إلى يالتا حيث تقرر عقد الاجتماع هناك . وانتقلنا بالطائرات — الوفدين الأمريكى والبريطانى ، وعدده ٧٠٠ رجل إلى مطار ساكى فى جزيرة القرم ثم توجهنا بالسيارات إلى يالتا .

وقال تشرشل لستالين عندما تساءل عن الطريقة التى ستجزأ بها ألمانيا : إن هذه القضية معقدة لا يمكن حلها فى خمسة أو ستة أيام لأن مثل هذا الموضوع يتطلب دراسات عميقة فى التاريخ وعلم الأجناس البشرية والحقائق الاقتصادية واستعراضا طويلا تقوم به لجنة خاصة تتولى دراسة مختلف الاقتراحات وتقدم رأيها فيها وكذلك اتفق المجتمعون على دراسة مشروع دومبارتون أوكس لضمان الأمن العالمى وموضوع بولندا ، وكان مؤتمر دومبارتون أوكس قد انتهى من قبل دون نتيجة حاسمة .

وقال ستالين فى مؤتمر يالتا أنه يخشى أنه بالرغم من تحالف

الدول العظمى الآن ، وأن أى منها لن تقوم بأى عمل عدوانى . . فانه يخشى أن الزعماء الثلاثة قد يختفون فى المسرح فى خلال عشر سنوات أو نحو ذلك ويتولى السلطة جيل جديد لم يمر بتجربة الحرب ، وقد ينسى هذا الجيل كل ما مر به العالم من محن . . ثم أردف ستالين قائلا « إننا متفقون فيما بيننا على ضرورة أن يحل السلام لمدة ٥٠ سنة على الأقل فاذا ظللنا متحدين ، فلن يكون للألمان أى خطر يهددنا — ومن أجل هذا يجب التفكير فى ضمان هذه الوحدة مستقبلا وأن تنضم الصين وفرنسا إلى جبهة الدول الثلاث » .

واستطرد ستالين بأنه يجب الحصول على ضمانات فعالة إذ حدث فى عام ١٩٣٩ أن طردت روسيا من عصبة الأمم فى أثناء الحرب الروسية الفنلندية بايعاز انجلترا والولايات المتحدة وصرنا فى عزلة .

وتمكن روزفلت بعد جهد بالغ اقناع ستالين بقبول مشروع أمريكى يصير فيه مجلس الأمن عاجزا عن إصدار أى قرار إلا إذا أجمع عليه الأربعة الكبار وإذا رفضت أية دولة منها أى مشروع فلا يجوز لمجلس الأمن إقراره وهذا هو حق الفيتو .. أما تشرشل فكان يرى أن إقامة أى جهاز عالمى يجب أن يكون على أساس إقليمى ، إذ أن هناك مناطق إقليمية موجودة فعلا كالولايات

المتحدة وأوروبا وجامعة الشعوب البريطانية وأمريكا الجنوبية والاتحاد السوفيتى وكذلك المجموعات الافريقية والآسيوية وكان الهدف الذى يبتغيه تشرشل من ذلك هو حل القضايا التى تدور حولها الخلافات المحلية الحادة فى المجالس الإقليمية ، التى ترسل بثلاثة أو أربعة من ممثليها إلى المجلس ويكون هذا المجلس الأعلى مؤلفا من ٣٠ أو ٤٠ شخصية عالمية يكون كل واحد منهم مسئولا عن منطقته ومعالجة القضايا العالمية . . وكان تشرشل يعارض جمع الدول صغيرها وكبيرها فى جمعية عمومية إذ أن ذلك سيكون أشبه ما يكون بتنظيم جيش لا فرق فيه بين القيادة العليا وقادة الفرق والكتائب وانتهى مؤتمر يالتا ومضت عدة أسابيع على انتهائه ، ولكن الحكومة السوفيتية لم تنفذ شيئاً مما اتفق عليه المؤتمرون بشأن بولندا، وازدادت الحالة سوءاً إذ بدت نوايا روسيا واضحة بضم رومانيا إلى الحظيرة السوفيتية وكأنما كان ستالين قد أقر على الورق فقط مبادىء مؤتمر يالتا ! وها هو يضم رومانيا ! وهكذا أخذت السياسة السوفيتية تبدو واضحة أمام عينى تشرشل المغمضتين . . يوماً بعد يوم إذ طلبت روسيا أن تمثل بولندا فى المؤتمر الذى ستعقده الأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو وأن يقتصر هذا التمثيل على حكومة برلين الموالية لها ! وعندما رفضت الدول الغربية هذا الطلب رفض السوفييت السماح لمولوتوف بحضور المؤتمر .

وحاول تشرشل أن يتصل بستالين لإيقاف مولوتوف عند حد وذلك بأن يبعث برسالة شخصية إليه ، كما ناشد تشرشل روزفلت أن يوجه رسالة مشتركة لستالين ليذكره بتأزم الحالة ، ولكن ستالين كان قد مرض واشتدت عليه الوطأة !

وهكذا أخذ تشرشل يرى غير ما كان يتوقع من روسيا ولم يكد يستمتع بلذة الانتصار ، إذ أن استسلام ألمانيا لم يكن قد تم بعد !

الفصل الأخير فى الحرب

لقد تبدلت العلاقات بين الديموقراطية الغربية وبين روسيا السوفيتية بعد أن تحطمت القوة العسكرية الألمانية ، كأنما كان ما يربط بينها العدو المشترك وهو الذى كان يوحد بينهما فلما اختفى خطر هتلر من على المسرح بدأت الدعوة الشيوعية سافرة فى فرض سيطرتها وقد اعترف تشرشل بذلك وسجل هذا بالحرف الواحد: «هكذا أصبح هذا النجاح الظاهرى الذى أحرزناه من أشد اللحظات تعاسة وشقاء على نفسى ، وكنت أسير بين الجماهير المحتشدة أو أجلس إلى المائدة التى امتلأت برسائل التهانى وقلبى يذوب منصهرا بالآلام ، كما كان عقلى مشتتاً وهو واقع تحت ثقل كابوس من القلق والتوجس والمخاوف».

وقد أدى تقدم الجيوش السوفيتية والانتصارات التى أحرزها الجنرال الكسندر فى إيطاليا . والفشل الذى منى به الألمان فى هجومهم المضاد فى الأردين وزحف الجنرال أيزنهاور على الراين أدى كل ذلك إلى اقتناع كل الألمان بأن النهاية المحتمة قد دنت والساعة قد أزفت فيما عدا هتلر والأفراد القلائل الذين حوله . . وكان السؤال المحير لدى أولئك الألمان الذين أدركوا الحقيقة أخيراً

هو لمن يجب أن يستسلموا . . كان من المسلم به أن الألمان ليس في وسعهم أن يطلبوا الصلح من روسيا . . فلم يبق أمامهم سوى أن يتوجهوا نحو الغرب . . وكان هذا السؤال يحمل تساؤلا آخر هل فى استطاعتهم أن يعقدوا هدنة مع أمريكا وبريطانيا ؟ ولكن الإجابة كانت واحدة وهى الاستسلام بلا قيد أو شرط .

أما هتلر ، فكان يدرك بأن الرايخ الثالث قد مات وأنه لابد له أن يموت معه .

وكانت وثمة مفاوضات تجرى بين قواد الغرب وبعض القواد الألمان للاستسلام ، وعندئذ أبدى ستالين استياؤه الشديد واعتبر هذا انتهاكا صارخاً للارتباط الذى جمع روسيا مع أمريكا وبريطانيا ، وكانت روسيا عنيفة فى اتهامها ، فأبلغه تشرشل أن روسيا قد أساءت الفهم ، وأن المفاوضات الجارية لا تزيد عن استسلام عسكرى يعرضه الألمان وأن نية الحلفاء متجهة إلى دعوة ممثلى الروس للحضور إلى مقر الحلفاء ، وفى الوقت ذاته بعث ستالين إلى روزفلت رسالة يقول فيها أنه نتيجة للمفاوضات الدائرة بين القواد الألمان والقواد الأمريكيين والانجليز فقد توقف سير الحرب بالنسبة للدولتين بينما يواصل الألمان الهجمات على الروس . . . وتأثر روزفلت من هذا الاتهام لم يشأ أن يرد عليه بنفسه وقامت

أمريكا بإرسال خطاب ترد على اتهامه وعلى أنه مما يحز فى النفس وجود مثل هذا الجو من عـدم الثقة بينما النصر قاب قوسين أو أدنى .

وفى يوم ١٢ أبريل عام ١٩٤٥ مات روزفلت فجأة وتولى ترومان مقاليد الحكم رئيسا للولايات المتحدة ، ولم يكن من عادة روزفلت أن يطلع ترومان يوما بيوم على الحوادث الجارية والاتصالات التى يقوم بها ، فكان مركز ترومان دقيقاً فى الشهور الأولى وقبل أن يطلع على جميع الملفات التى تحوى الكثير مما حدث فى الميدان الدولى ، وأولى ترومان اهتماماً كبيراً بالنسبة لبولندا التى كانت نوايا روسيا تستهدف أن تنضم إلى الدول الشيوعية ، إذ أنها مالبثت أن رفضت فكرة إشراف الدول الثلاث على الانتخابات فى بولندا باعتبار أن هذا الإشراف يعتبر تدخلا معيباً فى الشئون الداخلية لبولندا .

وفى خلال ذلك كله لم تكن مقاومة الألمان قد خمدت ، بل مضت تناضل بيد أنه كان نضالا مستميتاً يائسا مع أن العتاد الحربى الألمانى كان كافيا إلا أن الجيوش الألمانية كانت مفتقرة إلى الوقود ولم تلبث مقاومة الألمان فى شمال إيطاليا أن انتهت ، واستسلم ما يقرب من مليون جندى ألمانى كأسرى حرب فى ٢ مايو عام ١٩٤٥

وجاءت نهاية موسولينى أيضاً إذ أنه قرر فى ٢٥ أبريل حل ما تبقى من القوات الإيطالية المسلحة وطلب من أسقف ميلانو أن ينظم اجتماعاً له مع أعضاء اللجنة العسكرية السرية لحركة التحرير الإيطالية الوطنية ، ولكنه خرج غاضباً من الاجتماع ، وفى مساء ذلك اليوم خرج موسولينى من قصر الأسقف غاضباً ومعه بعض زعماء الفاشست الموالين له بعد أن ارتدى معطف وقلنسوة جندى ألمانى ، ولكن دورية من دوريات المقاومة الإيطالية أوقفت موسولينى وجماعته ووضعت القيود الحديدية فى يديه كما اعتقلت عشيقته بيتاتشى ، وفى اليوم التالى حمل الشيوعيون موسولينى وعشيقته إلى خارج المدينة حيث قتلا ونقلت جثتاهما إلى ميلانو حيث علقا من الأقدام فى خطاطيف الجزارة فى إحدى محطات البنزين فى ناحية بيازلورنيو . . . وبذلك اختتمت حياة موسولينى الذى طالما قاد بلاده من نصر إلى نصر ، والذى وضعها يوماً ما فى عداد الدول الكبرى .

وكانت رحى الحرب دائرة بين قوات الحلفاء والقوات الألمان فى غير هوادة فى الأراضى الألمانيـــة وكان هتلر قد قرر فى يوم ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٥ قراره النهائى أن يظل فى برلين حتى الموت وكان الروس قد طوقوا برلين وحاول جورنج ، وكان قد اتجه إلى جنوب ألمانيا ، أن يعلن نفسه خليفة لهتلر باعتبار أن

الأخير قد قرر البقاء فى برلين وحدها وأنه بذلك يتنازل عن كل سلطاته ولكن رد هتلر على ذلك بأن عزل جورنج من جميع مناصبه، وبعد ذلك وقع جورنج أسيراً فى يد القوات الأمريكية مع أكثر من مائة ضابط من رجال السلاح الجوى الألمانى، أما من بقى مع هتلر فهم قلة من الرجال ومن أبرزهما جوبلز ويورمان، وكان القتال يدور مستعرا فى شوارع برلين، وكتب هتلر وصيته يوم ٢٩ أبريل صباحاً، ثم جاءته الأنباء بمصرع موسولينى، وفى يوم ٣٠ أبريل عام ١٩٤٥ «تناول طعام الغذاء ثم انسحب إلى حجرته وانتحر بمسدسه وتناولت إيفا براون التى كان هتلر قد تزوجها سرا السم وأحرقت الجثتان فى ساحة مستشارية الرايخ الثالث. أما جوبلز فقد قتل نفسه وأولاده الستة بالسم ثم طلب إلى رجال حرسه إطلاق النار عليه وعلى قرينته، أما بقية أعضاء مجلس قيادة هتلر فقد وقعوا أسرى فى يد رجال السوفييت.. وكذلك تناول هملر السم بعد أن قبض عليه متنكرا.. وكان هتلر قد عين الأميرال دونتس رئيساً من بعده.

وأخيرا استسلم دونتس بلاقيد أو شرط وتنفس العالم الصعداء بانتهاء هذه الحرب الضروس وقال تشرشل فى كلمة وجهها إلى الشعب البريطانى :

إن علينا فى أوروبا أن نتأكد بأن الأهداف العليا السامية

التى من أجلها دخلنا الحرب ، لن يكون مصيرها أن تكون حبرا على ورق فى الأيام المقبلة . . . وألا تفقد كلمات الديموقراطية والحرية معانيها كما استوعبناها . . إذ لا فائدة ترجى من أن نعاقب النازيين على ما ارتكبوا من الجرائم إذا لم تظلل العدالة والقانون أوروبا... بدلا من الحكومات البوليسية إذا ما حلت محل النازيين! وأننا لا نطالب بمغانم حربية بل لابد لنا أن نتأكد أن المثل الرفيعة التى حاربنا من أجلها ستكون موضع الاحترام على مائدة الصلح كما أن علينا أن نجعل المنظمة العالمية المقبلة درعاً ، وليست لعبة فى أيدى الدول القوية .

وكأنما كان تشرشل يخاطب فى هذه الكلمة حليفته روسيا التى أحس مؤخراً بأنها تسير فى اتجاه آخر لم يكن فى حسبان تشرشل قط . حتى لقد صرح بقوله «أن القلق من المستقبل الغامض ومشاعر الخوف تملأ صدرى » وكان تشرشل يرى وقتئذ أن الخطر الشيوعى قد حل مكان الخطر النازى .

وفى الوقت ذاته لم تكن اليابان قد استسلمت بعد .

ورأى تشرشل ضرورة مؤتمر يضم الثلاثة الكبار .

وبعث تشرشل إلى ترومان برسالة مطولة ، يوضح له فيها ضرورة عقد هذا الاجتماع وخطورة الوضع فى أوروبا بعد انسحاب

الجيوش الأمريكية منها ، والمطامع الشيوعية فى أوربا واستعمل تشرشل — ولعل ذلك لأول مرة — تعبير الستار الحديدى عن الدول الأوربية التى تسيطر روسيا عليها ، ولكن ترومان لم يبد تحمساً نحو تشرشل ، بل كان يؤثر أن يتقابل هو مع ستالين قبل أن يلتقى بتشرشل وأحس الأخير بأن فى هذا شيئاً يمسه ، وكان ترومان يؤثر ذلك حتى لا تثار الشكوك فى نفس ستالين عن تكتل الولايات المتحدة ضده .. وكان تشرشل فى الوقت ذاته يسعى لتوطيد العلاقة مع روسيا بيد أنه كان يشعر بقلق بالغ من موقف الروس إزاء قرارات مؤتمر يالتا ومن الموقف الروسى إزاء بولندا ومن النفوذ الروسى فى البلقان فيما عدا اليونان ومن السيطرة الروسية فى الدول التى تقع تحت سيطرتهم . . وكان تشرشل يتساءل عن الحال بعد عام أو عامين بعد انسحاب جيوش أمريكا وانجلترا .. بينما تستطيع روسيا أن تبقى فى أوربا نحو ٢٠٠ فرقة لا تكاد تواجهها فرق أخرى سوى بضع فرق فرنسية ضئيلة لا يعمل لها أى حساب .

وكان « الستار الحديدى » كما أسماه تشرشل قائماً على الجبهة الروسية فعلا .

وأخيراً اتفق ترومان مع ستالين على اجتماع يحضر إليه الثلاثة

الكبار فى ١٥ يونيو عام ١٩٤٥ وبعث ترومان إلى تشرشل بذلك ورأى الأخير أن هذا الموعد بعيد وحاول تقريبه ولكن دون جدوى .. وكان تشرشل يرى أن مرور الزمن فى غير صالح الدول الغربية ، فإن روسيا السوفيتية كانت تمد نفوذها فى كل يوم .. ويقول تشرشل «كيف صارت الحالة بعد ثمانى أعوام ، لقد اتسع خط الاحتلال السوفيتى فى أوروبا من لوبيك إلى لينز وصارت تشيكوسلوفاكيا ضمن الدائرة السوفيتية وكذلك دول البلطيق ورومانيا وبولندا وبلغاريا فيما عدا يوغسلافيا .. ولم تنقذ إلا اليونان ! .

والأدهى من ذلك ، أن ترومان أصر على انسحاب الجيوش الأمريكية والبريطانية منذ أول يوليه رغم معارضة تشرشل فى ذلك معارضة شديدة وكانت تتبع تلك الجيوش حشود متدفقة من اللاجئين الألمان الذين يخشون الحكم السوفيتى .. وهكذا توطدت أقدام روسيا الشيوعية فى صميم أوروبا .

وفى الوقت ذاته كان تشرشل يخوض معركة الانتخابات فى انجلترا ، وكان مضطراً إلى المرور فى بلاد انجلترا كلها ، فمضى يجوب أنحائها فى قطار اتخذه مقرا له فى خلال زياراته لتلك المدن ، وكان يلقى ثلاث أو أربع خطب فى اليوم بين الجماهير المحتشدة

منوهاً بما أنجز فى خلال أيام الحرب . والعبء الكبير الذى قام به إلى جانب الإذاعات التى كان يديرها لتأييده . ومن الغريب أن تشرشل يذكر عن تلك الأيام فى مضاضة بالغة «كنت أحس أن ما حاربنا من أجله فى أوروبا قد أخذ ينهار وكذلك أخذت الآمال فى حلول سلمية تنطوى» .

وبعد انتهاء عملية الاقتراع تمهيدا لفحصها بعد ثلاثة أسابيع مضى تشرشل فى أجازة يستريح فيها متجهاً إلى بوردو مع قرينته ، مضى معها وبرفقتهما ابنته مارى .. ليطالع بعض القصص وليستعيد ذكريات الماضى وليزاول هواية الرسم التى يؤثرها ، هذه الهواية التى قال عنها فى يوم ما أنها تنسيه كل شىء ، . إذ أن ذهنه كله يكون منصرفاً إليها .

وفى يوم ١٥ يوليه عام ١٩٤٥ وهو اليوم المحدد لاجتماع المؤتمر استقل تشرشل الطائرة متجهاً إلى برلين حيث سيعقد المؤتمر . . وكان ترومان قد حضر فى اليوم ذاته . . ومضى تشرشل لزيارته ، وكان هذا هو اللقاء الأول بينهما ، وإن كانا قد تراسلا قبل ذلك ، وارتاح تشرشل من الانطباع الأول لهذه المقابلة ، وقام الاثنان بزيارة خرائب برلين ، كما زارا مقر هتلر الذى انتحر فيه .

وفى يوم ١٧ يوليه حملت الأنباء مولد القنبلة الذرية الأولى

التى أجرت الولايات المتحدة تجربتها المثيرة فى صحراء المكسيك وجاءت التفصيلات فى التقرير الذى أرسل إلى تشرشل يذكر بأن القنبلة فى منطقة دائرية قطرها عشرة أميال ،وأن العلماء ومساعديهم وقفوا وراء دروع هائلة لحمايتهم وأن الانفجار كان مروعاً وله لهب ودخان هائل وقد شمل التخريب دائرة ميل تقريباً . . التقى تشرشل بعد ذلك مع ترومان ومضيا يتحدثان عن الحرب المقبلة مع اليابان . . هذه الحرب التى سوف تكون مريرة لأن اليابانيين سوف يقاومون بكل ما فى أيديهم من الوسائل . . وستكون الخسائر بالغة بين الطرفين قد تصل إلى مليون جندى أمريكى ومثل هذا العدد أو أكثر من اليابانيين ..ودارت فى رأسى الرجلين فكرة إنهاء الحرب مع اليابان بقنبلة أو بقنبلتين . ، وبذلك تنتهى الأمور ولا يحتاج الغرب إلى مساعدة روسيا التى وعدت أن تقوم بدورها فى معاونة الحلفاء ضد اليابان .

ثم استقر الرأى بين ترومان وتشرشل على استعمال هذا السلاح الرهيب اختصاراً للمذابح والوصول بالحرب إلى النهاية . أما بشأن تعهد ستالين فى مؤتمرى طهران ويالتـا فور الانتهاء من الحرب مع ألمانيا ، وأما الاستعدادات الروسية التى بدأت فعلا لإنجاز هذا الوعد فقد رأى ترومان أن يبلغ ستالين شخصياً فى الاجتماع بما استقر عليه الرأى .

وكان اليابانيون لا يزالون يقاتلون باستماتة ، وكان الأسطول الياباني قد نال ضربات قاصمة ، كما عمت الفوضى في كثير من الأرجاء إلا أن الرجال العسكريين في اليابان كانوا متشبثين بالحرب .

وأخيراً وجه الحلفاء إنذاراً عنيفاً لليابان ، بالاستسلام يوم ٢٦ يولية عام ١٩٤٥ ورفض اليابانيون الإنذار ، فبدأ السلاح الجوي الأمريكي إعداد العدة لإلقاء القنبلة الذرية وسبق ذلك تحذيراً للسكان المدنيين وألقيت يوم ٦ أغسطس القنبلة الذرية الأولى على مدينة هيروشيما وفي يوم ٩ أغسطس ألقيت القنبلة الثانية على نجازاكي . وفي اليوم التالي ، وافقت اليابان على قبول الإنذار بشرط أن تظل سلطات الإمبراطور كما هي . . ووقعت وثيقة الاستسلام يوم ٢ سبتمبر .

أما مؤتمر برلين بين الثلاثة الكبار فلم يؤد إلى نتيجة تذكر بالرغم من تشعب الحديث وخاصة عن بولندا التي كانت روسيا تتشبث بها إلى النهاية مهما كانت النتائج ، إذ أن روسيا قامت بتوسيع حدودها إلى خط كرزون كما وسعت الحكومة البولندية الموالية لروسيا حدودها إلى النيسي الشرقي والغربي حيث يقطن الألمان هذه المنطقة الألمانية ويبلغ تعدادهم نحو عشرة ملايين فكيف يمكن أن ينتقل هذا العدد إلى داخل ألمانيا المفتقرة إلى الغذاء !

وقد حدث عند إنتهاء الاجتماع يوم ٢٤ يونية عام ١٩٤٥ أن توجه الرئيس ترومان نحو ستالين وأنهى إليه بالحدث التاريخى الضخم ، وهو تجربة القنبلة الذرية فى صحراء المكسيك ، ونتائجها الرهيبة واستعمالها فى اليابان لإنهاء الحرب معها ، أما ستالين فإنه تلقى هذه الأنباء فى شىء من المرح ، ولم يشأ أن يزيد شيئاً .

مصير عجيب

كان برنامج حزب المحافظين فى الانتخابات سيئاً للغاية ، فلقد كانت هناك مسائل على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للشعب البريطانى الذى خرج بعد حرب طويلة يلعق جراحه ، ويتلفت إلى الإصلاحات الاجتماعية قبل كل شىء ، وبعد هذه الحرب الضروس التى احتمل شقاءها سنوات طويلة وكان من أبرز تلك المشكلات مشكلة البطالة والتأمين الاجتماعى .. وكان حزب العمال هو الحزب الذى يتطلع إليه الشعب البريطانى فى هذه الآونة الحرجة بعد الحرب وكانت الصدمة عنيفة لتشرشل بفوز حزب العمال فى الانتخابات ، بل لقد كان النبأ مذهلا فى كثير من الدول . . . . وتساءل الناس هل هو نكران للجميل من الشعب البريطانى إزاء الرجل الذى أنقذ انجلترا وهى على شفا الانهيار ؟ وفى الواقع لم يكن الشعب البريطانى ناكراً للجميل بقدر ما كان محتاجاً إلى الرعاية الاجتماعية والتأمين الاجتماعى وتدبير العمل لأولئك الجنود العائدين إلى أرض الوطن ولم يكن تشرشل المحافظ فى رأى رجل الشارع بالرجل الذى يستطيع أن ينهض بتلك الأعباء ، وفى الوقت ذاته أحس بعض المحافظين أنفسهم بأن تشرشل فى حاجة إلى أن يعتزل الحكم ، فقد تقدمت

به الأعوام . . ولكن الرجل لم يكف عن نشاطه ، فمضى يكتب المقالات ، ويخطب فى أماكن كثيرة ، وبلاد كثيرة ، ولقد جاء وقت كان لتشرشل فيه شعبية فى الولايات المتحدة أكثر من روزفلت ذاته ، ولا يمكن القول بحال أن استراتيجيته السياسية كانت منزهة عن الأخطاء ، ولقد رأينا أن المؤتمرات التى عقدت وتضم الثلاثة الكبار ، باءت بالفشل ولم تثمر أية نتيجة إيجابية ، وفى الوقت ذاته كان الروس ينظرون إليه نظرة مختلفة ، كانوا يجلون تشرشل باعتباره رجلا صمم على هزيمة ألمانيا ، ولكنهم كانوا يكرهون ماضيه ولا يثقون فى التعامل معه مستقبلا .

ومن الغريب فى هذا الصدد أن الجنود العائدين إلى أرض الوطن ، عندما أدلوا بأصواتهم فى الانتخابات لم يمنحوا ثقتهم لتشرشل وتلك كانت صدمة عنيفة أخرى لتشرشل الذى لم يرتب أمره للانتخابات بل كان يحسب أنه سيفوز فيها على وجه التأكيد. فجاءت النتيجة مذهلة له ولغيره حقاً .

* * *

سافر تشرشل فى شتاء عام ١٩٤٦ إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أمضى فيها بضعة شهور ، زار فى خلالها البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية ، وتلقى تشرشل فى أثناء

إقامته دعوة لإلقاء خطاب فى كلية وستنمستر فى فولتون فى شهر مارس من السنة نفسها ، واستفهم تشرشل من البيت الأبيض ومن وزارة الخارجية الأمريكية عما إذا كان هناك ثمة مانع أو حرج ذا ما أثار فى خلال خطبه أو أحاديثه بعض المسائل المتعلقة بالحرب العالمية الثانية وآثارها فجاءه الرد بأنه يستطيع أن يدلى بأى بيانات كما يشاء .فأخذ من فوره يعد خطابه الموعود فى الجامعة وكانت روسيا ماضية وقتئذ فى تنفيذ سياستها الخاصة إزاء الدول الأوربية التى دخلت فى نطاقها وقام تشرشل بتقديم الخطوط العريضة لخطابه لوزير خارجية أمريكا الذى أبلغ الرئيس ترومان بدوره بمحتوياتها ، وتوجه تشرشل إلى فولتون حيث سيلقى خطابه فى القطار الخاص الذى يقل ترومان والذى كان سيرأس المحاضرة .

وكان أهم ما جاء فى المحاضرة قول تشرشل « إن الإنسان لا يدرى ما الذى تتطلع إليه روسيا وتنتويه فى أوربا فى الأيام المقبلة وإلى أى حد ستعمل على تعميم دعوتها الشيوعية فى تلك البلاد . . وإذا كنت أسجل هنا شديد إعجابى بالشعب الروسى لشجاعته وأكن له مزيداً من الاحترام ، فإننى لا أنكر كذلك مزيد العطف والنوايا الطيبة التى يحسها الشعب البريطانى نحو الشعب الروسى . . وكذلك الرغبة فى بقاء العلاقات الودية بين الدولتين .

ولكنى أحسب أنكم تريدون أن أذكر لكم حقائق الأحوال كما ألمسها وأن أبين لكم الأوضاع الراهنة فى أوربا ، لقد أنزل الستار الحديدى على أوربا من بحر البطليق شمالا إلى البحر الأدرياتى ووراء هذا الستار توجد عواصم كافة الدول العريقة فى القدم فى وسط أوربا وشرقها . . هذه العواصم هى وارسو وبرلين وفيينا وبلغراد وبودابست وصوفيا وبوخارست . . كل هذه البلاد صارت تتعرض للسيطرة الشيوعية وإشرافها ، عدا اليونان فقط ، اليونان ذات التاريخ المجيد ، هى وحدها التى نجت من هذه السيطرة وستقوم فيها انتخابات حرة وقد شجعت الحكومة البولندية التى يهيمن السوفييت عليها أن تقوم باغتصابات طائلة من ألمانيا دون حق ، وأننا الآن نرى طرد وتشريد الألمان بالملايين على نحو لا مثيل له فى أسود عصور التاريخ وتحاول الأحزاب الشيوعية التى لا تتمتع بأية شعبية كبيرة فى تلك البلاد السيطرة على مقاليد الحكم ، وكذلك تسيطر الحكومات البوليسية فى كل الأرجاء . ولا توجد أية حيـــاة سياسية ديموقراطية فى أى بلد من هذه البلاد فيما عدا تشيكوسلوفاكيا . . وكذلك صارت تركيا وإيران فى حالة فزع من المطالب المتكررة التى تطلبها الحكومة السوفيتية ، ومن الضغط التى تعانيه ، وكذلك يقوم الروس بإقامة نظام شيوعى فى المناطق التى يحتلونها فى ألمانيا ، وفى الوقت ذاته انسحبت الجيوش البريطانية

والأمريكية فى شهر يونية عام ١٩٤٥ مئات الأميال لتحل محلها القوات الروسية .. وسوف تتولد متاعب غاية فى الخطورة إذا ما حاولت الحكومة السوفيتية الآن عن طريق انفرادها بالأمر إقامة دولة ألمانية شيوعية فى المناطق التى تحتلها ، وهكذا سنعطى للألمان الذين انهزموا الفرصة للمساومة بين الديموقراطية الغربية والسوفييت » .

وكان لإلقاء هذا الخطاب أثره فى الشعب الأمريكى الذى تأثر مما احتواه ، وفى نفس الوقت قوبل الخطاب بهجوم مركز من الاتحاد السوفييتى،وهاجم ستالين الخطاب باعتبار تشرشل من الاستعماريين الرجعيين بل شبهه ستالين بهتلر .. وأنه من دعاة الحرب وأعداء الاتحاد السوفييتى .. ومن الغريب أن بعض الأسئلة قدمت فى مجلس العموم البريطانى عن هذا الخطاب باعتبار أنه يسيء إلى العلاقات الودية بين انجلترا وروسيا ولكن المستر آتلى رئيس الوزراء أجاب بأن الحكومة لا يمكن أن تجيب على خطاب يلقيه أحد المواطنين الانجليز فى خارج البلاد .

وكان تشرشل قد دعى لإلقاء خطاب آخر بعد أيام فى مدينة نيويورك ، وكان من المقرر كذلك أن تشرشل سيكون ضيف الشرف على رئيس بلدية نيويورك .. وقد فوجىء تشرشل إذ رأى

لافتات كتبها الشيوعيون على واجهة فندق والدروف استوريا الذى كان من المقرر أن يلقى تشرشل فيها خطابه ، فى خلال مأدبة العشاء التكريمية .. وكذلك فوجىء تشرشل باعتذار وكيل وزارة الخارجية الأمريكية عن حضور الحفلة وجاء فى خطاب تشرشل فى تلك الحفلة « لقد أحسست عندما ألقيت خطابى السابق فى فولتون أنه ليس ضرورياً بالنسبة لرجل لا يشغل مركزاً رسمياً أن يكون فى حديثه متحفظا عندما يتناول الأحوال الحاضرة فى أوربا . . أو فى العالم . . وأننى لأنتهز هذه المناسبة لأكرر بأننى لا أرغب أبداً فى العدول عن أى كلمة ذكرتها فى خطابى السابق فقد دعيت لإلقاء الكلمة الحرة فى هذه البلاد الحرة ، وأننى على يقين بأن الروابط التى توجد بين بلدينا ستزداد تأصلا يوماً بعد يوم دفاعاً عن القضايا الإنسانية وبشأن مصير العالم.. وذلك لضمان الحيلولة دون وقوع حرب أو صراع عالمى جديد . . وهذا أوفق من حدوث هذا الترابط بين الدولتين بعد وقوع الصدام كما حدث فيما مضى . . وأن حرية جميع شعوب العالم وتقدمها سوف لا تحققه منظمة عالمية وحدها دون جهود مستمرة وصادقة من نظامى المجتمع فى أمريكا وبريطانيا .

واستطاع تشرشل أن يجذب أنظار الصحافة الأمريكية بتلك الكلمات التى أثارها ضد الاتحاد السوفييتى ، وخاصة لأن الصحافة

فيها تدعمها الرأسمالية الأمريكية وهى فى عداء تقليدى مع روسيا السوفيتية .

وفى خلال رحلة تشرشل إلى سويسرا فى خريف سنة ١٩٤٦ زار جامعة زيوريخ وألقى فيها خطاباً عن الحالة فى أوروبا وفى هذا الخطاب دعا تشرشل إلى دعوة جديدة فى أسلوبها واتجاهها بأن ترومان رئيس الولايات المتحدة قد اغتبط لدعوة تشرشل بإقامة منظمة للدول الأوروبية وأن هذه المنظمة لا تتعارض مع وجود منظمة الأمم المتحدة لا يقدر لها أن تحيا دون وجود منظمات إقليمية منسجمة على نحو طبيعى .. ودعا تشرشل إلى تناسى أهوال الماضى ، والتطلع إلى المستقبل دون كراهية أو رغبة فى الثأر وإن أول خطوة فى سبيل إيجاد منظمة أوربية قوية هى أن تقوم شركة بين فرنسا وألمانيا، وبذلك يمكن لفرنسا أن تستعيد زعامتها لأوربا وأنه لا يمكن أن تتم عملية البعث فى أوربا دون قيام فرنسا . . . وقيام ألمانيا بدوريهما الفعال .

* * *

توفى ستالين فى مارس عام ١٩٥٣ ، وكان تشرشل قد عاد إلى منصب رئيس الوزراء ، ولقد اعتقد تشرشل أن وفاة ستالين ستحل الجفوة التى شملت العلاقات مع الاتحاد السوفييتى فإن تشرشل

اعتبر وفاة ستالين نقطة تحول فى تاريخ روسيا ، إذ كان ستالين طاغية تسبب فى كثير من الضحايا فى بلاده ذاتها ، ولم يكتف ستالين بعزل الجمهوريات السوفيتية ووضعها وراء الستار الحديدى بل جعل تلك الدول التى امتدت إليها يده فى أوربا وراء الستار الحديدى أيضاً وحدد اتصالها بالعالم الخارجى .

وألفى تشرشل أن الفرصة مواتية له أن يتقدم إلى مجلس العموم البريطانى عام ١٩٥٣ ليعرض اقتراحا بعقد مؤتمر يضم رؤساء الدول الكبرى ، فى سبيل تصفية الأمور المعلقة ، ورغبة فى استقرار التفاهم بينها .

وكانت المسألة الهندية تشغل الرأى العام البريطانى . وكان من المعروف أن تشرشل كان يقف موقفاً معادياً بل شديد المعاداة لفكرة استقلال الهند ، وكان من أشد خصوم غاندى ، ولكن تشرشل تراجع عن آرائه البائدة « لقد اقتنعت بتعديل أفكارى وآرائى الماضية بشأن الهند . . والتزمنا بأن نعطى للهند مركز الدومنيون ، مع إعطائها الحق فى الانفصال عن جامعة الشعوب البريطانية إذا شاءت ذلك » .

* * *

ولابد ونحن نستعرض حياة تشرشل أن نوضح هنا سياسته

نحو الصهيونية وليس أدل على أن تشرشل كان متحيزا إلى جانب الصهيونية من أن نذكر أقواله فى هذا الصدد فهى أبلغ دليل على إعطاء فكرة صحيحة واضحة المعالم عن آرائه فهو يقول : « لقد كنت منذ صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ من أخلص أنصار القضية الصهيونية ومؤيديها ولم أحس البتة أن البلاد العربية قد جنت منها إلا العدل فى معاملتها » (وهذا تزييف واضح على الحق والتاريخ، فالبلاد العربية اكتوت من الاستعمار البريطانى بما يسع مجلدات لتعداد ألوان السلب والنهب والاضطهاد والعبث بحقوق العرب.. وأن التاريخ الحديث وحده يكفى للدلالة على ما عانته البلاد العربية من الاستعمار البريطانى الذى قاوم الحركات التحررية فيها ، وحارب أهل فلسطين العرب ومكن لليهود والنازحين من فجاج العالم أن يحلوا محل سكان البلاد الأصليين ، وإن كان يظهر أنه لا يضمر شراً للدول العربية وهو تناقض لا يستطيع المرء تفسيره سوى أنه يسعى إلى إرضاء الصهيونية العالمية وفى الوقت ذاته يقنع نفسه بقناع عدم إظهار العداء للعرب ولكن الطراز الذى يؤثره تشرشل من العرب هو طراز « الأصدقاء الأوفياء » .) .

دراسة لشخصية تشرشل

إذا كان الاختلاف على سياسة تشرشل من الأمور المسلم بها فإنه لا يمكن إنكار دوره الذى سجله بجهده وأعصابه طوال السنين التى عاشها يخوض المعارك المختلفة .

ولقد تناولت إحدى الصحف الكبرى سيرة هذا الرجل بمناسبة وفاته بقولها « لقد تجمعت كل الظروف لتساعد صنع تشرشل الناجح ، فوالده لورد — وربما كانت مصادفة غريبة أن يكون يوم وفاة تشرشل هو اليوم السبعين لوفاة والده — ولذلك كان فى أسرة لها تقاليد عريقة وتتمسك بكل مظاهر الحياة والسلطة إذ شغل أبوه منصب ممثل الملكة فى إيرلندا ثم وزيرا للخزانة وقد خلق كل ذلك فى تشرشل اعتزازاً بتاريخ بلده وقدرة على التمسك بكل ماورثه الشعب البريطانى من أجداده، وفى نفس الوقت جعلته هذه الظروف يحب الحياة ولكنه كما كان يقول عن نفسه دائماً لم يكن يخاف الموت الذى واجهه فى حياته مرات متعددة ، ووضع لنفسه فلسفة عن جديته ، وأخذ الأمور جاءت . . . وكل شىء من ذلك سيكون طيباً .

وفى الوقت الذى ورث عن أبيه الاعتزاز ببلده وورث عن

عائلة أمه حب الكتابة والعمل الصحفى فهى أمريكية من بين أصحاب جريدة النيويورك تايمز ، وقد أعدته الأسرة للعمل السياسى ، إذ لم يكن حتى نهاية القرن التاسع عشر فى بريطانيا عمل يتمتع بالهيبة والمجد سوى العمل السياسى .. وكانت الأسرة قد نالت شهرة تصل أحياناً إلى حد الأسطورة فهى تعرف كل شىء يحدث وكل زعيم يبرز حتى قيل أنها مرجع الجميع فى الشخصيات والأحداث وأصبح تشرشل بدوره يحمل نفس الأسطورة .

وكانت عائلة تشرشل تضم تيارين سياسيين متعارضين هما تيارا حزب الأحرار والمحافظين ، وإن كانت لم تفقد بسبب الخلافات الحزبية وحدتها . وربما كان ذلك من بين العوامل التى أثرت بعد ذلك فى تشرشل حتى أنه حين اختلف مع حزب المحافظين لم يجد صعوبة فى هجره إلى حزب الأحرار أو العودة إليه بعد ذلك ، وفى كل مرة كان يحمل الولاء للدولة أولا قبل الولاء للحزب .

وقد عمل تشرشل خلال عمره فى أكثر من عمل ، فهو رسام وقصاص وصحفى وجندى ورجل دولة ، وقد ساعده ذلك كله على تحقيق أكبر قدر من النجاح لم يحققه زعيم بريطانى آخر . وقد كان من عوامل نجاحه :

١ — أنه يتميز بأعصاب هادئة مهما بلغ التوتر حوله . فطوال

سنوات الحرب لم يفقد اتزانه مرة واحدة ، وقد يكون اكتسابه لهذه الصفة يرجع إلى مهنة الرسم . فهو يجلس الساعات الطوال يخطط الصور بالفرشاة فى صبر فتعلم على لمساتها ضبط الأعصاب حتى استطاع أن يحقق به النصر لبلده . ولذلك وصفه هيوم رئيس وزراء بريطانيا السابق بأنه كان أعظم قائد فى الحرب واستطاع وحده أن يرجح الكفة فى الحرب العالمية الثانية من الهزيمة إلى النصر وقال ديجول أنه كان له الفضل فى انتصار الحلفاء .

ويوم كانت جيوش الحلفاء تتراجع أمام الزحف النازى كان تشرشل يقول لشعبه أننا لن نستسلم . . سنحارب فى الحقول والوديان . . فى الطرقات وعلى قمم الجبال . . إن ردنا الوحيد على دعاة الهزيمة هو النصر .

وكان يمتاز بقدرة فائقة على استخدام الألفاظ حتى أن الملك إدوارد الثامن — وقد سبق الكلام عن ذلك طلب منه صياغة خطاب اعتزاله العرش ليتزوج من المطلقة الأمريكية . . ويبدو أن تشرشل اكتسب هذه الصفة من عمله الصحفى وتأليف الكتب وإذا أضيف لذلك مايتمتع به من قدرة على السخرية فى عرض رأيه لوضحت صورته فى أية مفاوضات .

ويقال نقلا عن لسان إبنة تشرشل فى مؤتمر يالتا أنه قال

لستالين أنه يعتبر نفسه صاحب فضل فى أن الجيش السوفيتى ممتاز لأنه يعتبر نفسه مسئولا عن إعادة تنظيمه . . وسط دهشة الجميع استطرد تشرشل قائلا : إنه كان مسئولا عن تنظيم عملية التدخل الحربى ضد روسيا بعد الثورة البلشفية مما اضطر الحزب الشيوعى إلى إعادة تنظيم وبناء الجيش .

٣ — وكان يتمتع بقدر كبير من الذكاء واللباقة لعرض وجهة نظره ، ولعل خير مثل يوضح طبيعته أنه قدم إلى أتلى مرة — وكان يجلس بجواره — سيجارا ، وكان نادراً ما يفعل ذلك ، ويقول أتلى بعد ذلك أنه فرح بالسيجار واعتبره شرفاً ولكنه سرعان ما اكتشف الحقيقة أن تشرشل قدم له السيجار ليدخنه لأنه يكره رائحة الغليون الذى كان أتلى يدخنه .

٤ — أنه بدأ حياته بالعمل خارج بريطانيا سواء كصحفى أو جندى أو رجل دولة ، وقد ساعده ذلك كثيراً فى خلق شخصية دولية احترمها خصومه قبل الحلفاء له — حتى أن صحيفة تاس السوفيتية قالت فى وصفه بأنه شخصية نادرة وإن كان تشرشل بعد الحرب الأخيرة كان الرجل الذى أعطى إشارة البدء للحرب الباردة ضد السوفييت .

ونظرة على حياة تشرشل نجدها خير مثل لحياة بريطانيا نفسها

والمعروف أن هناك علماً جديداً فى السياسة ينظر إلى تطور حياة الدول مثل الأشخاص فهى تمر بمرحلة طفولة وشباب ثم رجولة تصبح أخيراً شيخوخة .

فنى عنفوان شبابه كانت الإمبراطورية البريطانية فى قمة مجدها فشارك تشرشل بشبابه فى تدعيم بنيانها ، إذ اشترك فى كل الحروب لتدعيم الإمبراطورية وبدأ فى ثورة كوبا ثم اشترك فى القتال لاحتلال الإقليم الشمالى الغربى من الهند بعد ذلك بعامين وفى العام التالى ١٧٩٨ اشترك مع القوات البريطانية فى مصر فى حملة السودان وفى العام التالى مباشرة اشترك فى حرب البوير كمراسل حربى حيث أسر ولكنه استطاع الفرار فى مغامرة تكاد تكون أسطورة سينمائية — كما أوضحنا ذلك على وجه التفصيل .

وقد بدأت شيخوخة بريطانيا مع شيخوخة تشرشل .

ولم يقف تشرشل عند حد الاشتراك فى الحرب فقط ، بل أنه بادر بإشعال الحرب الباردة حين تحدث بعد الحرب العالمية الثانية فى الولايات المتحدة عن الحليف الروسى . . وكانت بداية مرحلة جديدة . . وعنيفة من الحرب الباردة . . وهو أول من خلق كلمة الستار الحديدى فى خطاب له فى أغسطس سنة ١٩٤٥ بمجلس العموم البريطانى .

وتشرشل يحمل لقب سير ، وقد رفض لقب اللورد الذى كانت الملكة تريد منحه إياه حتى لا يفقد معقده فى مجلس العموم .. وقالت الملكة أنها مستعدة فى أى وقت يراه تشرشل أن تعيد عليه عرض لقب اللورد .

وحصل تشرشل على لقب «مواطن شرف» للولايات المتحدة، إذ كانت أمه أمريكية وكان يصف نفسه بأنه وحده كشخص يمثل الوحدة بين أمريكا وبريطانيا !

ونال تشرشل جائزة نوبل فى الأدب على مذكراته سنة ١٩٥٣ وقد علق رئيس اللجنة على ذلك بأنه جرى العرف أن تعطى الجائزة شرفاً لمن ينالها إلا هذه المرة حيث نالت جائزة نوبل شرف قبول تشرشل لها .

وتعتبر مذكرات تشرشل من أهم الآثار السياسية التاريخية التى كتبها رجل سياسى فى العالم على مر العصور ، فهى تصوير حى للأحداث التى وقعت فى العالم فى هذا القرن ، وتعتبر مرجعاً لا غنى عنه ، لكل رجل عسكرى وسياسى وتاريخى بل لكل شخص مثقف عليه أن يتابع أحداث الزمان، ويدرك كنهها، فهذه المذكرات الحافلة بسرد الأحداث الدولية المتعاقبة ، من المعارك والمؤتمرات والأحاديث والمغامرات صورة حية نابضة ، كتبها تشرشل

بأسلوب رائق ، سهل . تفيض بتفاصيلها الدقيقة فى تبيان تلك الأحداث العالمية بما يجعلها سجلا هائلا لحقبة هامة فى تاريخ البشرية . . وإذا كانت هذه المذكرات فيها جوانب لا يتفق فيها المرء مع صاحبها فى الرأى إلا أنها لا يمكن أن تفقد قيمتها التاريخية والسياسية الكبيرة .

* * *

ويجمل بنا ونحن ندرس شخصية تشرشل أن ندرج هنا رأى أحد كبار فلاسفة هذا العصر فى تشرشل ونعنى به الكاتب الاشتراكى هارولد لاسلكى فهو يقول ما نصه عن تشرشل فى كتابه عن ثورات العصر :

. . . وأنا لا أنكر لحظة واحدة أن ما من سياسى أبداً تمثلت فيه إرادة شعب متحد فى النصر تماما أكمل مما تمثلت فى مستر ونستون تشرشل أو بصورة أروع . بيد أنه من الأهمية بمكان أن نتذكر أولا أن الطبقة الحاكمة نبذت ثمانى سنوات فى احتقار تشخيص مستر تشرشل لأخطائها ، ولم تلجأ إليه إلا فى اللحظة الأخيرة بعد أن كادت الكارثة تقع ، ومن المهم أن نتذكر أن قبولها لزعامته كان يتضمن شرطاً هو ألا تمس أسس الديموقراطية الرأسمالية ، وقد سمح له أن يضع ضمادات على الجروح المفتوحة ،

ورفع المكافآت العائلية لأفراد القوات المسلحة ، وزيادة معاش الشيخوخة ودفع الأجور الزراعية الخ . . وأنا لا أقلل مطلقا من شأن هذه الإجراءات ، ولكن لابد لى من ملاحظة أنها تركت المسائل الحيوية الخاصة بعلاقات الإنتاج دون مساس . . وإذا قيل أن زعماء النقابات وحزب العمال قبلوا هذه السياسة ـ سياسة تشرشل ـ فلا بد لى مرة أخرى من ملاحظة أنهم كانوا يستطيعون أن يتحدوها دون أن يعرضوا لخطر التحطيم تلك الوحدة القومية التى أثبتت التجربة الفرنسية المريرة أنها شرط أساسى للنصر . إن أحزاب الطبقة العاملة كانت تواجه معضلة انها أما أن تقبل ما كان مؤيدو مستر تشرشل على استعـــداد للتنازل عنه أو أن تكون عامل هزيمة ، وكانت تعرف أنه مع الهزيمة على يد هتلر لن يكون للطبقة العاملة فى بريطانيا أى مستقبل يتطلب من هذه الأحزاب التفكير فيه .

وكذلك تناول هارولد لاسكى الحديث عن تشرشل فى مقام آخر بقوله : ليس من بين الساسة الذين قضوا حياتهم فى معترك بريطانيا التقليدية من رأى بوضوح أكثر ، أو بشجاعة أكبر ، فى سنوات ما قبل الحرب ما رآه مستر تشرشل من أن هتلر يعنى الحرب ، كما لم ير أحد منهم العواقب البشعة بالنسبة لبريطانيا من استعدادات هتلر للحرب أكثر وضوحا مما رآها هو . . بيد أنه

من الواضح تماماً أن تشرشل لم يفهم مطلقا القوى الاقتصادية التى كان هتلر ممثلا لها ، ولا الأسباب التى جعلت الغالبية الساحقة من حزبه من « المهذبين » حتى شارف الأمر على نهايته . وهذا هو فى اعتقادى الإستنتاج السليم فى أن مستر تشرشل لم يفهم إلا بعد دخول إيطاليا الحرب ، أن موسولينى يمثل نفس مجموعة القوى التى يمثلها هتلر ، فقد أدرك فى سنة ١٩٣٣ حقيقة أن هتلر خطر يهدد قوة بريطانيا ، ولكن دلالات الفاشية الإيطالية لم تحركه لأن موسولينى لم يكن فى وقت من الأوقات خطراً يهدد سلطة بريطانيـــا ، إلا بوصفه تابعاً لهتلر ، وهو يشعل الحرب فى شجاعة وبطريقة ممتازة حتى يحافظ على هذه السلطة . وليس هناك مجهود لا يبذله أو تضحية ليس على استعداد لتقديمها للإبقاء عليها . إن الرجل الذى استطاع بإيماءة سامية أن يعرض على فرنسا الاتحاد ، والذى استطاع بإيماءة أخرى أن يمحو سوء التفاهم مع روسيا الذى استمر جيلا ، لم يكن ينقصه شىء من القوة التقليدية للارستقراطية حتى يرتفع إلى مستوى الأحداث . وأنا أعرف مدى عمق الإلهام الذى منحه مستر تشرشل للناس الأحرار ، لا فى بريطانيا وحدها بل فى العالم أجمع وإن إعجابى به لا يفوقه إعجاب .

ومع ذلك فرأيى أن مستر تشرشل لم ير الطبيعة الحقيقية لهذه كما لم ير « بيرك » طبيعة الثورة الفرنسية . وهذا هو السبب فى أنه

يحاول إشعال حرب شاملة دون أن يكيف إطار علاقاتنا الإنتاجية لعواقبها . وهذا هو السبب فى أنه استطاع أن يعلن أننا نقاتل فى سبيل الديمقراطية والحرية ويترك فى نفس الوقت مشكلة علاقاتنا مع الهند بلا حل . وهذ أيضاً هو السبب فى أنه يصر على أن مايهمه هو المحافظة على بريطانيا « التقليدية » . . والسبب كذلك فى أنه لم يفهم ما يعنيه قانون « النزاعات المهنية النقابية » الذى صدر فى سنة ١٩٢٧ والذى يعد هو شخصياً مسئولا عنه إلى حد كبير بالنسبة للملايين من العمال . . إن الفروض التى يقوم عليها تفكير مستر تشرشل حددها العالم القديم الذى يموت ، كما كانت الفروض التى يقوم عليها تفكير « بيرك » محددة بعالم ١٧٨٩ فهو لا يستطيع أن يرى كما لم يستطع بيرك أن يرى معالم العالم الجديد الذى يجاهد حتى يخرج إلى النور .

وإذا كان مستر تشرشل بمواهبه العظيمة فى القلب والعقل وبشجاعته فى المخاطرة وبعدم قدرته النبيلة على قبول الهزيمة يتطلع الماضى مستلهما وحيه ، فإنه مما لايدعو إلى العجب أن أولئك الذين يقودهم لا يرون أبعد مما يرى إلا نادراً ، فلورد هاليفاكس يتحدث بلغة المذهب الذى يقول بحق رجال الدين فى الاشراف على تصرفات الناس وهو المذهب الذى ظلت الكنيسة تبشر به ألفى عام دون أن تستطيع تطبيقه ، ولا يبدو أن مغزى مذهب

استطاع أن يكيف نفسه مع الرق والإقطاع والرأسمالية قد تبلج لذهنه . . . ويجدد مستر إيدن ايدلوجية ديموقراطيـة المحافظين « التورى » فى لهجة دزرائيلى الذى كتب « سيبل » ولـكن لا يبدو أنه قد استنتج من مسلماتها الوجود المستمر لطبقة متميزة لم تشعر تاريخياً ، بمقتضيات النبل إلا عند ما أحست بأنها تستطيع أن تقوم بها دون أية تضحية لاداعى لها بالعوامل التى توطد سيطرة الامتياز على الطبقة . . وسير كنجسلى وود الذى ظل طوال هذه المدة مصراً على التعامى عن دلالات الهتلرية ، يمثل وجهة النظر الأصلية لرجل الأعمال المحافظ فالصكوك يجب أن تدفع لأن الافلاس مخل بالشرف والتضخم النقدى خطر ، ولـكننا لم نسمع كلمة واحـدة من سير كنجسلى وود تشير إلى أننا وصلنا إلى حقبة يتطلب الأمر فيها مفهومات اقتصادية واجتماعية جديدة .

وباختصار أن الحزب الغالب فى « الحـكومة القومية » — ويعنى به حزب المحافظين — يتحرك نحو مجتمع مخطط دون أى مجهود جدي لأن يرسم لنفسه صورة لطبيعة التخطيط وامكانياته فهو يفترض أن ما أطلق عليه مستر تشرشل « بعض الإجراءات العملية فى التعمير » ستواجه مقتضيات الموقف بصورة ما . ومع هذا فهو يدرك فى قلق أنه إنما يواجه دلالات ذات طابع ثورى حتى وهو مستمر فى اتباع سياسة « تسيير الأمور بصورة ما »

القديمة . وحقيقة أنه يتبع هذه السياسة هى ، بطبيعة الحال ، التى تدفع الحزب الشيوعى إلى الإصرار على أن قيام ثورة عنيفة أمر لا مفر منه ، وإذا لم يحدث تكيف بالرضا فإن الالتجاء إلى العنف يبدو بوضوح فى طبيعة الأشياء التى تواجهنا .

ويستكمل هارولد لاسكى وصفه لشخصية تشرشل وتحليلها تحليلا دقيقا من وجهة نظره الاشتراكى قائلا :

« إن الطبقة الحاكمة فى بريطانيا - يعنى المحافظين - رغم رغبتها الشديدة فى هزيمة الهتلرية ، تريد بشدة أن تنظم هذه الهزيمة على أساس شروطها ، فهى تدرك فى قلق أن هناك قضايا خطيرة محل جدل ، ولكنها مصممة على أن تحدد ، إذا استطاعت المبادىء أن تحدد على أساسها هذه القضايا ، وهذا هو السبب فى أن الحرب — يعنى الحرب العالمية الثانية — لم تشهد أى تجارب عظيمة فيما يتعلق بالإجراءات أو بالناس . فأيا منهـا قد يكشف عن حقيقة أن الأسس التقليدية لمجتمعنـــا ليست أسسه الضرورية . واهتمام المحافظين بالحيلولة دون تكشف هذه الحقيقـــة للجماهير ليس أقل كثيراً من احساسهم بالضرورة الملحة للنصر . لأن زعماءهم غير مستعدين ، حتى عند مايكون الكيان القومى مهدداً ، للتجربة مع ديناميكية الديموقراطية ، وينطبق هذا على علاقات الإنتاج فى الداخل ، كما ينطبق على التفكير فى شئون الإمبراطورية

فى الخارج . وانهيار الديموقراطية فى فرنسا ليس سوى الشطر الأخير فى مجموعة من المعادلات الاجتماعية لن يحلها ، سواء فى بريطانيا أو أمريكا مجرد تحقيق النصر .

وإذا قيل أن مستر تشرشل يتولى قيادة قوى المحافظة وأنه بوصفه رئيساً للوزارة قد أثبت بما لا يدع مجالا للجدل أنه ما من ثمن لا يدفعه فى سبيل النصر ، فان هناك ، فيما اعتقد ، بعض التحفظات المهمة التى يجب ذكرها ، فأولا من الضرورى ، إدراك أنه كانت فى أوروبا حرب قائمة غير معلنة على الأقل منذ الفترة التى أعاد فيها هتلر تسليح أرض الراين، ولكن قوى كبيرة استمرت عدة سنوات بعد ذلك تعترض على تشخيص تشرشل للموقف وما اقترحه من علاجات له . ولم تقبل زعامته إلا بعد أن سقط الجزء الأكبر من أوروبا الغربية صريعاً تحت أقدام هتلر، وصحيح فى اعتقادى ، القول بأن قيام حكومة تشرشل كان من عمل الأمة وأنه فرض بواسطة الرأى العام على حزب المحافظين الذى ظل فترة طويلة ينفر من دلالاته .

* * *

والسنة الأولى فى حكم مستر تشرشل تجعله جديراً ، من أية ناحية نظرت ، بأن يحتل مكانة عظيمة فى التقليد السياسى البريطانى

فقد صار بطريقة تدعو إلى الإعجاب ، رمزاً لإرادة أمة فى البقاء فى مواجهة خطر جسيم . فقد أظهر شجاعة وعزماً لا يقل قدرة على المحافظة على ثقة الشعب فى نفسه واعتزاز بالنفس لا يقهر ولا يقبل الهزيمة أبداً . أظهرها جميعاً بدرجة لم يسبقه إليها أحد فى تاريخنا . بيد أننا يجب أن نلاحظ أنها ، قبل كل شىء فضائل الأرستقراطى ، وهى تكشف عن الرجل الذى ورث تقليداً امبراطورياً عظيما صمم على المحافظة عليه ، وهى صفات جذروها فى الأعمال العظيمة الماضية أكثر مما هى فى القدرة على التكيف فى مستقبل بدأ فجره . فليس فى سياسة مستر تشرشل أية جراة بمعنى أنه أبدى قدرة على التجديد تتناسب مع الخطر الملح، بل على العكس أن أساس سياسته نفسها قامت على المطالبة بعدم مناقشة أية قضية قد تكون موضع خلاف . والواقع أنه قد أصبح بصورة متزايدة أن مستر تشرشل نظر إلى هذه الحرب على أنها لا تختلف فى جوهرها عن حروب الماضى العظيمة ، فقد كان يمثل « مارلبورو » — لقب أسرته — يقاتل لويس الرابع عشر أو « بت » يقاتل نابليون ، فلم يهتم تشرشل بالدلالات الاجتماعية للصراع ، فهذا جانب من طبيعة الصراع غريب عن عبقريته أو شخصيته ، وأى تقدمية اتسعت بها وجهة نظره نتاج نزعه الارستقراطى نحو الكرم وقد استطاع أن يبلغ أقصى درجات النخوة عندما يرى مآسى الحرب

ويتأثر بها — كما حدث عندما رأى آثار الغارات الجوية — ولكن لم تكن لديه أية فلسفة عن الصراع تجعل خياله يرى مغامرة السياسة التى لا تنتهى فى أضواء جديدة ، ومن ثم لم يطلب إلى قوة المحافظين أن تخوض غمار الحزب على أسس لعلها كانت أرغمتهم على التفكير فى تغيير أساس القوة الاجتماعية تغييراً جوهرياً .

وربما كان اضطر إلى فعل ذلك لو أن حزب العمال طالب بهذا الغيير . وهناك شيئان منعا حزب العمال من المطالبة بذلك . الأول هو حقيقة أنه خلال شهور الخطر الشديد التى أعقبت اشتراكه فى الوزارة لم يفكر فى شىء سوى بقاء الأمة ، وهو ما يزيد فى مكانته إلى حد عظيم وعندما وجدت بريطانيا أنها لم تعد وحدها كانت الخطة التى يمكن أن يتم فيها التغيير بمجرد طلبه قد مرت . والثانى هو حقيقة أنه لم يمض بضعة أسابيع على اشتراكه فى الوزارة حتى كان تشرشل قد حظى بتفوق معنوى كامل على حزب العمال بحيث صاروا غير مستعدين للعمل على إدخال تغييرات قد تعرضه لمصاعب مع أتباعه من المحافظين . ولذلك على الرغم من أن حزب العمال تقدم ببرنامج أصر فيه على ضرورة إدخال تعديلات أساسية بوصفها جزءاً من المجهود الحربى إذا أريد ألا تذهب ثمرات الانتصار على الهتلرية سدى ، فقد قبل زعماؤه دون مقاومة رفض مستر تشرشل لهذا البرنامج على أساس أن الخلافات فى وقت الحرب فى يد

تهدد وحدة الأمه . ولم يترك هذا القبول المبادأة الحيوية بتحديد سياسة الحرب فى يد مستر تشرشل فحسب ، بل لقد عنى أيضا أننا سنكسب الحرب ، كما كسب « بت » الحرب ضد نابليون دون أى مساس بأساس القوة الاجتماعية . أى أن بريطانيا ستنظر فى القضايا التى تثار من أجلها الحرب بعد النصر ، وليس قبله .

وبمجرد أن نفهم ذلك تصبح أشياء ذات أهمية واضحة . أولا أن الطبقة الحاكمة البريطانية — أى المحافظين — سيكون فى وسعها أن تدافع عن امتيازاتها دون الإحراج الناجم عن وجود عدو خارجى قوى يجبرها على التسليم فيما يتعلق بالمبـــادىء ، للجماهير التى يعد تعاونها أمراً جوهرياً للنصر . ثانياً ، أن عدم الربط فى وقت الحرب بين الديموقراطية البرلمانية وإجراءات واسعة للتغيير الاجتماعى تتم بالرضا لابد أن يؤدى إلى اضعاف سلطتها على الرأى العام فى فترة ما بعد الحرب ، ويجب أن نضيف هنا أن اضعاف مركزها الإنشائى فى الخارج لن يكون أقل ما يصيبها من ضعف فى الداخل . ويؤكد عدم الربط هنا بين الديموقراطية البرلمانية والتغيير الاجتماعى تفرقة قلما أشار إليهـا الكـتاب الإنجليز منـذ سنة ١٨٤٨ وهى التفرقة بين الحكم النيـابى وحكم الشعب للشعب ، فالأول ليس الثـانى إلا إذا أدرك أن العدالة مستحيلة بين الناس عنـد ما يحدد حقهم فى الرفاهية بما يملكون

وما يسيطرون عليه من ممتلكات . وثالثاً من الواضح أن الأساس الاشتراكى لحزب العمال شكلى أكثر منه جوهرى . ويتضح هذا من حقيقة أنه سمح لزعمائه بقبول مجموعة من الإصلاحات الاجتماعية البسيطة من مستر تشرشل ، وهى اصلاحات افترض فيها جميعاً لا بجرد أن توسيع نطاق الرفاهية ممكن بصورة دائمة فى فترة التقلص الرأسمالى — وهو الغرض النموذجى لحزب نقابى تصاغ مبادئه على أساس التجربة اليومية وليس على أساس التحليل الفنى التاريخى — فحسب بل وافترض فيها أيضاً أن احترام الإجراءات الدستورية عادة دائمة من عادات الطبقة الحاكمة البريطانية .

* * *

وهذا التحليل السياسى الدقيق الذى عنينا باثباته هنا ، والذى تناول فيه هارولد لاسكى فى عمق ودقة فحوى سيـــاسة حزب المحافظين وسياسة حزب العمال ازاءه ، والدور السياسى الذى كان يمثله تشرشل يعطينا فكرة واضحة المعالم عن شخصية تشرشل واتجاهاته السياسية .

كتبه وآثاره

ألف تشرشل مجموعة ضخمة من الكتب ، ومن أشهر مؤلفاته «راندولف تشرشل» عام ١٩٠٦ والأزمة العالمية فى أربع مجلدات عام ١٩٢٣ — ١٩٢٩ وحياتى الباكرة عام ١٩٣٠ والجبهة الغربية عام ١٩٣١ ومارلبرو فى أربع مجلدات عام ١٩٣٣ — ١٩٣٨ وعظماء المعاصرين عام ١٩٣٧ وأحاديث الحرب ٨ أجزاء فى عام ١٩٣٨ — ١٩٤٦ ومذكرات عن الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٨ .

وتعتبر مذكرات تشرشل قمة آثاره السياسية التاريخية لما اشتملت عليه من صور وأحداث سياسية وشخصيات لعبت أدوارا هامة فى حياة العالم فى هذا العصر .

وكذلك خلف تشرشل مئات من المقالات التى كتبها فى كثير من الصحف البريطانية باعتباره أحد محرريها ، وكان تشرشل إلى جانب هذا أديباً فذاً ورساماً من طراز ممتاز وقد حازت لوحاته الاشادة بها فى الأكاديمية الملكية عام ١٩٤٧ . . . كذلك كان خطيبا بارعاً يعرف انتقاء الكلمة الحاسمة اللائقة فى الوضع المناسب لها ، وفى أوقات فراغه كان إلى جانب هواية الرسم ، يلجأ إلى زرع حديقته وغرس الأشجار فيها وتنسيقها . . وكان يميل

إلى أن يلتقى حوله طائفة من الشباب المهتمين بالسياسة ليبثهم آراءه السياسية .. هذه الآراء التقليدية التى كان يحرص عليها والتى كانت تصطدم مع كثير من التيارات الفكرية الحديثة فى المجال السياسى . . .

ولا بد من الاشارة هنا إلى أنه تزوج عام ١٩٠٨ من كلمنتين أوجيفلى ابنة سير هنرى مونتاجو هوزير وأعقب منها ولداً وثلاث فتيات وكان زواجه سعيداً وقد وقفت قرينته معه فى أحلك ساعات حياته تسانده وتشد أزره وتعاضده .

وفى يوم ٢٤ يناير عام ١٩٦٥ مات تشرشل السياسى العجوز الداهية بعد أن صارع الموت زهاء ثمانية أيام ، مات أقوى شخصية سياسية فى بريطانيا ، والذى يعتبر ـ فى حكم الكثيرين ـ أعظم من أنجبتهم تلك البلاد شأناً إذ أنقذها بمضاء عزيمته من الانهيار ، وإذا كانت سياسته واتجاهاته موضع خلاف وموضع نقد وهجوم ، فإنه مما لاشك فيه أن شخصية تشرشل السياسية لعبت دورها الرئيسى فى عصرنا الحديث .

هذا الكتاب

يشتمل هذا الكتاب على سيرة حياة السياسى العجوز الداهية ونستون تشرشل ، بكل ما اشتملت عليه من مغامرات ومتناقضات وعجائب .

والواقع أن سيرة هذا الرجل الذى قيل عنه بحق «أنه آخر حلقة أسطورية فى تاريخ الأمبراطوريات المنقضية» مليئة بألوان غريبة لاتخطر على البال ، فى أعوام حياته التى إستطالت نحو قرن من الزمان . وإذا كان الانجليز يعتبرونه بطلاً قوميًا أو شخصًا اسطوريًا ، أنقذ انجلترا فى أيام محنتها بعد أن أشرفت على الإنهيار والدمار أو كادت - فإن تاريخه من ناحية أخرى يمثل حقبة طويلة من الزمن جديرة بأن تقرأ ليستعيد فيها المرء الأحداث المتوالية التى مرت بالعالم فى عشرات السنين الأخيرة الماضية .

وأما كونه فى نظر أمته بطلاً أو نحو ذلك فشئ لا يلتزم به المؤرخ إنما يعنى هذا الكتاب باعطاء صورة واضحة المعالم لأخلاق هذا الرجل وعاداته وسياسته ومغامراته ومعاركه وكل ما اتسمت به شخصيته من صفات من خلال الحوادث الغريبة التى لازمت حياته الطويلة وما مر بالعالم الذى إتصل به من أحداث وحروب .



الثمن ١٢ ص